الأدب الأموي

تاريخه وقضاياه

تأليف
دكتور
زكريا عبد المجيد النوتي
مدرس الأدب والنقد
بكلية اللغة العربية - جامعة الأزهر

الطبعة الأولى

١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

مطبعة الحسين الاسلامية
٢٥ حارة المدرسة خلف الجامع الأزهر
تليفون : ٩١٩٧٢٤

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أحمد الله تبارك وتعالى ، وأصلى وأسلم على خاتم أنبيائه ورسله ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد .

فالعصر الأموى هو عصر بين عصور ازدهر فيهما الأدب ازدهارا بينا ، لقد سبقه العصر الجاهلى وصدر الاسلام ، وتلام العصر العباسى، وفى العصر الأول كانت للشعر مكانته بين القوم كما تعرف ، وفى العصر العباسى كان الازدهار الشامل لشتى العلوم والمعارف ومن بينها الشعرالذى تطورتطورا واسعا وأخذت الصنعة سبيلها إليه .. فأين موقع الأدب الأموى من سابقه ولاحقه ؟ .. هذا ما تكشف عنه هذه المحاضرات .

هذه المحاضرات تكشف خط سير الأدب العربى شعره ونثره فى هذا العصر وهل طرأ على فنونه من تجديد أو ظل تقليديا بحتا ؟

وقد حاولت قدر الجهد أن أوجز الحديث حتى أستطيع أن ألم بكل جوانب الموضوع فى هذا القدر المحدود ..

وانى لأرجو أن تفى هذه المحاضرات بالغرض ، وعلى الله قصد السبيل ..

دكتور/ زكريا عبد المجيد النوتى

القاهرة فى ٢٤ من ربيع الثانى ١٤١٣ هـ

٢١ من أكتوبر ١٩٩٢ م

الباب الأول

الشعر فى العصر الأموى

الفصل الأول

العوامل المؤثرة فى الأدب الأموى

أولا : السياسة

تمهيد :

كانت حياة العرب فى الجاهلية قائمة على العصبية القبلية ، تلك التى أشعلت نيران الحروب بين قبائلهم ، ومزقت المجتمع الجاهلى ٠٠

وجاء الإسلام فجعل أخوة الدين أسمى من أخوة النسب ، وكانت تعاليمه حاثة على استلال سخائم العصبية الجاهلية ، عاملة على إحلال الحب والسماحة والفخر بالدين محل تلك العصبية ٠

ونهى – فى سبيل ذلك – عن التفاخر بالأنساب ، وجعل التفاضل على أساس التقوى **« إن أكرمكم عند الله أتقاكم »**(١) ٠

وقد امتن الله سبحانه على المسلمين بتأليفه بين قلوبهم ، وحثهم – سبحانه – على الإبقاء على هذا التآلف ، ونهاهم عن الفرقة **« واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ٠٠ »**(٢) ٠

وكان ثانى عمل للرسول – ﷺ – فى المدينة – بعد بناء المسجد –

---

(١) سورة الحجرات : آية ١٣ ٠
(٢) سورة آل عمران : آية ١٠٣ ٠

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار ، تلك الأخوة التى كانت لها حقوق مقدمة على حقوق القرابة إلى غزوة بدر الكبرى التى نزل فى أعقابها قوله سبحانه « **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله إن الله بكل شىء عليم** »(٣) .

وفى صحيح البخارى بسنده عن ابن عباس قال :

« كان المهاجرون حين قدموا المدينة يرث المهاجرى الأنصارى دون ذوى رحم للأخوة التى آخى النبى - ﷺ - بينهم ... فلما نزلت « **ولكل جعلنا موالى .. نسخت** »(٤) .

وقد أثنى القرآن الكريم على تعاملهم فيما بينهم فقال سبحانه : « **والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ..** »(٥) .

وليس معنى ذلك موت العصبية موتا ، بل كانت تظهر بين الحين والآخر ، ولذلك نجد هذه الأحاديث الكثيرة عن الرسول - ﷺ - تنهى وتحذر من تلك العصبية . يقول - ﷺ - :

« من قاتل تحت راية عمية يغضب لعصبية ، **أو يدعو لعصبية ، أو ينصر عصبية فقتل قتلة جاهلية** »(٦) .

---

(٣) سورة الأنفال : آية ٧٥ .

(٤) صحيح البخارى - كتاب التفسير - تفسير سورة النساء ، باب قوله تعالى : (**ولكل جعلنا موالى**) .

(٥) سورة الحشر : آية ٩ .

(٦) صحيح مسلم - كتاب الامارة - باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن ١٤٧٨/٣ ، وسنن ابن ماجه - كتاب الفتن ٢/٢

وفى وصيته - ﷺ - فى خطبة الوداع يقول :

« إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء ، مؤمن تقى ، وفاجـر شقى ، أنتم بنو آدم ، وآدم من تراب ، ليدعن رجال فخـرهم بأقـوام إنما هم فحم من فحم جهنم ، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان التى تدفع بأنفها النتن .. »(٧) .

لقد كانت العصبية تظهر إذا بدا ما يهجيها ، ومن ذلك ما حدث فى غـزوة بنى المصطلق :

« كسح رجل من المهاجرين رجـلا من الأنصـار فكان بينهما قتال إلى أن صـرخ الأنصـارى : يا معشر الأنصـار ، وصرخ المهاجر : يا معشر المهاجرين ، فبلغ ذلك النبى - ﷺ - فقال :

---

(٧) عون المعبود شرح سنن أبى داود ١٤/١٦ ، ط دار الكتب العلمية بيروت .

العبية : الفخر والتكبر والنخوة . (مؤمن تقى وفاجر شقى) قال الخطابى : معناه أن الناس رجلان : مؤمن تقى فهو الخير الفاضل وإن لم يكن حسيبا فى قـومه ، وفاجر شقى فهو الدنى وإن كان فى أهله شريفا رفيعـا أ. هـ .

وقيـل : معنـاه أن المفتخر المتكبر إما مؤمن تقى فإذن لا ينبغى له أن يتكبر على أحـد ، أو فاجـر شقى فهو ذليـل عند الله ، والذليل لا يستحق التكبر ، فالتكبر منفى بكل حال .

الجعلان : جمـع جعل : دويبة سوداء تدير الخراء بأنفها ، قال الدميرى : وهو دويبة معـروفة تعض البهائم فى فروجها فتهرب ، ومن شـأنه جمع النجاسة وادخـارها ، ومن عجيب أمـره أنه يموت من ريح الورد وريح الطيب فإذا أعيد إلى الروث عاش ..

« ما لكم ولدعــوة الجاهلية .. دعوها فإنها منتنة »(٩) .

ويمكن القــول :

إن المسلمين فى عهد النبى - ﷺ - عاشوا فى شغل عن العصبية إلا فى القليــل النــادر ، لأنهم صاروا وحدة سياسية تصرف جهــودها لحماية عقيدتها وصيانة حياتها ، ولأن الغــزوات شغلتهم عن دعــاوى الجاهلية ، وصاغتهم تعاليم الإســلام على الإخــاء والمحبة ، ووجدوا فى رسول الله - ﷺ - أبا محبوبا يســوى بينهم ، وينسيهم ما سلف بينهم من بغضــاء وشحناء(١٠) .

وما أن لحق الرسول بالرفيــق الأعلى حتى أطلت العصبية برأسها لكن الله وفق أبا بكر وعمــر فى إخماد الفتنة ، وتولى أبو بكــر الخــلافة ثم عمــر ، ثم عثمان ..

وكانت خــلافة عثمان - رضى الله عنه - فرصــة مواتية للأمويين ليستردوا سلطانهم القديم فى الجــاهلية ، وليستأثروا بالخــلافة دون بنى هــاشم .

اشتعــال الفتنــــة :

وقتــل عثمان ، وبويع على - كــرم الله وجهــه - بالخــلافة ، بايعــه كثير من المسلمين ، وأيده معظم كبار المهاجرين ..

ولكن البيعــة لم تكتمل ، إذ انشــق عليه (معاوية بن ابى سفيان) بالشــام ، وكبار رجال بنى أمية ، (وطلحــة والزبير) اللذان خرجا الى مكة حيث توجد السيدة (عائشــة) ، وأخذوا يحرضون على الثــأر

---

(٩) راجع : فجر الإسلام ، أحمد أمين ص ٧٨ وما بعدها .

(١٠) راجع : أدب السياسة فى العصر الأموى ، د. أحمد الحوفى ، ص ١١ ، بتصرف .

لعثمان واخذ بعضهم يتهم عليـا بقتـل (عثمان) واخذ ما فى داره من سلاح وإبل بعد أن بويع بالخـلافة ، فهذا الوليد بن عقبـة(١١) ، أخو عثمان لأمه يقول(١٢) :

الا من لليـل لا تغـــور كـواكبــه
إذا لاح نجـم لاح نجـم يراقبــه

بنى هــاشـــم ردوا ســلاح ابن اختكم
ولا تنهبــوه ، لا تحــل منــاهبــه

بنى هــاشـــم لا تعجــلوا بإقـــادة
ســواء علينـــا قـاتــلوه وسالبــه

وإنــا وإيــاكــم ومــا كــان منــكم
كصـدع الصفـا لا يراب الصدع شـاعبه(١٣)

بنى هــاشـــم كيف التعـــاقد بيننــا
وعنـــد عـلى سيفــــه ونجــــائبه(١٤)

لعمــرك لا انسى (ابن أروى) وقتــله
وهل ينسين المـاء ـ ما عاش ـ شاربه

---

(١١) هو الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، أخو عثمان لأمه ، أمهما أروى ، وأمها البيضاء بنت عبد المطلب ٠ انظر : طبقات ابن سعد ١٥/٦ ، الاستيعاب ١٥٥٢/٤ ٠

(١٢) الأغانى ١٢٢/٥ ، وشعر أمويون ، القسم الثالث ـ د/ نــورى القيسى ، ص ٤٤ ٠

(١٣) صدع الصفا : الشقق فى الصخر ، لا يرأبه شاعبه : لا يصلحه مصلح ٠

(١٤) النجائب : النوق السريعـة ٠

هـم قتـــلوه كى يكـونوا مـكانـــه

كمـا غـدرت يـوما بكســرى مـرازبه(١٥)

وإنى لمجتـــاب إليـكم بجحفـــــل

يصـم السمييـع جـرسـه وجلائبـه(١٦)

وقد رد عليه (الفضل بن العباس بن لهب) فى قوله(١٧) :

فـلا تسـألونا سيفـكم ، إن سيفـكم

اضيـع والقـاه لـدى الـروع صـاحبه

سـلوا اهـل مصـر عن سلاح ابن اختنا

فهـم سلبـــوه سيفــه وحـرائبـه(١٨)

وكـان ولى العهـد بعـد محمـد

على ، وفى كـل المواطـن صـاحبـه

عـلى ولـى الله اظهــر دينـــه

وانـت مـع الأشقـين فيمـا تحاربـه

وقـد نـزل الرحمـن انـك فـاسـق

فمـا لـك فى الإسـلام سهـم تطالبـه

وتمـادى الأمر بين الطائفتين إلى أن التقتـا فى (صفين سنـة ٣٧ هـ) وكاد النصـر يكون حليفا لعلى وجنده لولا أن رفع جند معاوية المصـاحف مطالبين بالتحكيم .

وانتهى الأمـر بالتحكيم إلى خلع على وتثبيت معـاوية .

---

(١٥) المرازب : جمـع مرزبان وهو رئيس الفرس .
(١٦) مجتاب : سائر ، جحفل : جيش ضخم ، الجلائب : الخيل .
(١٧) مـروج الذهب ٤٣٣/١ .
(١٨) الحرائب : جمع حربية وهى المـال المسلوب .

● **قيــام دولة بنى أميــة :**

وقتــل على ـ كرم الله وجهه ـ ، وقامت الدولة الأموية سنة ٤١ هـ وذلك بعد تنازل (الحسن بن على) عن حقــه فى الخــلافة تفــاديا لنيران الفتنــة والحــروب ٠

وزار معــاوية الكوفة ، وبايعــه أهلها ، وبذلك كان أول خليفــة من بنى أمية من (سنة ٤١ هـ ـ ٦٠ هـ) وآخــرهم : مــروان بن محمد (١٢٧ هـ ـ ١٣٢ هـ) وعدد خلفائها أربعة عشر ٠

اتسم حكم الأمويين بالعصبية ، عصبية للعرب على الموالى والعجم، وعصبية لليمنية على القيسية ، ولبنى أميــة على بنى هاشم ٠٠٠ وهنا اتسعت رقعــة الخــلاف بين المسلمين فصــاروا شيعا وأحــزابا أسفــرت عن الفــرق الآتيــة :

★ ★ ★

١ ـ الحـزب الأمـوى

وهو الحزب الحاكم الذى انتزع الخلافة بكل سبيل ، وزعيمهم : السياسى الداهية (معــاوية) الذى يضـرب المثـل بشعرته فى الحـلم وذلك لقوله : (لو أن بينى وبين النــاس شعرة ما انقطعت ، كنت إذا شدوها أرخيتها ، وإذا أرخوها شددتها) ٠

أخذ معــاوية يوطد دعائم ملكه ، ويثبت قاعدته ، مستخدما فى ذلك دهاءه وحلمــه ، وسلك فى سبيل ذلك مسلك الترغيب والترهيب ٠

وابتدع معــاوية ما سماه بــ (ولاية العهد) وبذلك جعل الخلافة وراثيــة فى عقبــه ٠

« ولقد كان مفهـوما أن معــاوية بن أبى سفيان حينما استقر له الأمــر ، ودانت له الخلافة سوف لا يسمح بخروجها من بيت بنى أميــة ولكن الأمــر الذى لم يتوقعه زعيم من زعمــاء المسلمــين أو رأس من رءوس بنى أميــة نفسها أن معــاوية سوف يجعــل الخلافة وراثية فى عقبه وفى ولده (يزيد) على وجه التحديد ٠٠ وكان بعض بنى أميــة يطمعون فى الخــلافة بعده ، ولكن معــاوية الداهية يوعز إلى شاعره (مسكين الدارمى) أن ينشد قصيدة يقترح فيهــا ولاية العهد لــ (يزيد) فى مجلس يضم هؤلاء الطامعين ليقطع أملهم فيها(١) :

ألا ليت شعــرى مــا يقــول ابن عــامر

ومــــروان أم مــاذا يقــــول سعيــد ؟

---

(١) الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية د٠ مصطفى الشكعة ص ٣٠٣ (بتصرف وإيجــاز) ٠

بنى خلفاء الله مهلا فإنما
يبوئها الرحمن حيث يريد

إذا المنبر الغربى خلاه ربه
فإن أمير المؤمنين (يزيد)

على الطائر الميمون والجد صاعد
لكل أناس طائر وجدود

فلا زلت أعلى الناس كعبا ولا تزل
وفود تساميها إليك وفود

ولا زال بيت الملك فوقك عاليا
تشيد أطناب له وعمود(٢)

فقال معاوية : ننظر فيما قلت يا مسكين ونستخير الله ..

وصارت تلك سنة تحتذى فى بنى أمية ، وأصبح الوضع مجالا للتندر والتهكم ..

وفى ذلك يقول الشاعر (عبد الله بن همام السلولى) :

فان تاتوا بـ (رملة) أو بـ (هند)
نبايعها أميرة مؤمنينا

إذا ما مات كسرى قام كسرى
نعد ثلاثة متناسقينا(٣)

وهكذا تحققت نبوءة أبى سفيان ورجاؤه ، وكان قد صرح به فى دار عثمان بعد مبايعته بالخلافة .. وكان أبو سفيان قد كف بصره -

---

(٢) الأغانى ١٨/٦٨ .

(٣) الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية ٤ ١٠٤ نقلا عن مروج الذهب ٢/٧٠ .

فسـأل من بالدار : أفيكم أحد من غيركم ؟ قالوا : لا . قال : يا بنى أميـة ، تلقفوها تلقف الكرة ، فوالذى يحلف به أبو سفيان ، ما زلت أرجوها لكم ولتصيرن إلى صبيانكم وراثة »(٤) .

لقد انفصلت السياسة عن الدين فى عهد بنى أمية ، وصار الأمـر ملكا عضوضا يهدف إلى غـرض سياسى عملى يجب أن يتحقق وإن كان فيـه جور على الدين .

وأصبح الحكام أصحاب عرش دنيوى ، همهم حفظ الملك فى بيوتهم وإخضاع الرعية لسلطانهم ، وفى سبيل ذلك ضحوا بأسر وأفراد وشيع ومواثيق وشعـائر(٥) .

ولم يشذ عن نظـام توريث الخلافة إلا (معاوية بن يزيد) فقد أرادها شـورية ديمقراطية كما كانت فى عهد الخلفاء الراشدين ، فلمـا حضرته الوفاة طلبوا إله أن يعهد إلى من يختاره من أهل بيته فقال :

والله ما ذقت حلاوة خلافتكم ، فكيف أتقلد وزرها وتتنحلون أنتم حلاوتها ، وأتعجل مرارتها ، اللهم إنى برئ منهـا ، متخـل عنها ، اللهم إنى لا أجد نفـرا كأهل الشـورى فاجعلها إليهم ينصبون من يرونه أهـلا لهـا .

وقد استعـان مـلوك بنى أميـة فى سياستهم بجماعة من الولاة والقواد ينتقونهم انتقـاء حتى يمكنوا لسلطانهم .. وكان لبعض هؤلاء الولاة شخصية متميزة لها أثر كبير فى الرعية ومن هؤلاء :

---

(٤) مـروج الذهب ٤٤٠/١ .

(٥) تاريخ النقائض فى الشعـر العـربى د. أحمد الشايب ص ١٥٩ (بتصـرف) .

عمرو بن العاص فى مصـر ، والحجاج الثقفى الطاغية المعروف ، وبشـر بن مـروان ، والحارث بن أبى ربيعـة المخزومى ، والمهلب بن أبى صفـرة وأولاده ، وسلك هؤلاء مسلك الخلفـاء فى سياسة الترغيب والترهيب فأغدقوا المـال على الأنصـار والخصوم ، استبقـاء لمعـونة هؤلاء ، وتخفيفا من نقمة أولئـك .

* * *

٢ ـ الشيعـــة

وهم أنصـــار على ـ كـرم الله وجهــه ـ « وكانت البذرة الأولى للشيعة الجماعة الذين رأوا بعد وفاة النبى ـ ﷺ ـ أن أهـل بيته أولى أن يخلفوه ، وأولى أهـل البيت العباس عم النبى ، وعلى ابن عمه ، وعلى أولى من العبـــاس ، والعباس نفســه لم ينازع عليــا فى أولويته للخـلافة ، ولكن أتباع على يومئذ كانوا يعــرفون بالعلوية وكذلك مدة حياته وبعد مماته مع الدلالة عليهم باسم (الشيعة) »(١) ٠

بعد أن بويع على بالخـلافة اختــار الكوفة مقــرا له ، وعاصمــة لخلافته ، وشايعه كثير من العراقيين ، وصــارت العــراق وخاصة الكوفة موئلا للشيعــة وكانت هنــاك أسباب لإقبــال العراقيين عــامة والكوفة خاصــة على التشيع :

● وجد (ابن سـبأ) فى الكوفة مرتعــا خصبا لدعــوته الثــورية الواسعة ضد عثمان ، إذ كانت فى ذلك الوقت مرجلا يغلى بالسخط عليــه ، وعلى الرغم من أن (ابن سبأ) طــرد من الكوفة فإنه ظــل وهو فى مصــر يتصــل بالثائرين فى الكوفة ويتبادل معهم الرســائل ٠

وبهذا يمكن القول إن شجرة التشيع قد غرست فى الكوفة فى أيام تلك الفتنــة الكبرى(٢) ٠

---

(١) فجر الإسلام : أحمد أمين ، ٢٦٦ ٠ وراجع : أعيان الشيعة ٣٤/١ وشرح نهج البلاغة ٥٢٠/٤ ، ٢/٢ ، أدب السياسة ص ٣٠ ٠

(٢) الطبرى ٢٩٢٢/٦ ، حياة الشعر فى الكوفة ص ٥٢ ٠

- انتشــار الموالى فى الكوفة انتشــارا واسعا ، ومعظمهم من أصــل فارسى ، وفى التشيع نصــرة لأبنــاء على الذين تربطهم بهم صلة مصاهرة إذ تزوج الحسين إحدى بنات يزدجرد .
- كان أكثر سكان العــراق من العدنانيين وخاصــة قيس ومضر وتميم فى حين كان أكثر سكان الشــام من القحطانيين ، وبين هــؤلاء وأولئــك عداء قديم .
- رأى أهــل العــراق ـ والكوفة ـ أن عليــا أجدر بالخلافة من معاوية لورعه وتقواه وزهده وقربه من الرسول ـ ﷺ (٣) .

بعد مقتــل على ـ كرم الله وجهه ـ راجت الدعوة لابنه الحسن وبايعــه أهــل الكوفة ، وقضى بالخــلافة ستة أشهر ، واستعد لقتــال معــاوية لكن أهــل الكوفة خذلوه ، فتصــالح مع معــاوية وتنــازل عن الخــلافة سنة ٤٠ هـ .

وتوارى التشيع من الكوفة حينا ، وانضم أهلها إلى معاوية ، لكن التشيع ما لبث أن عاد مــرة أخــرى بعد أن أصدر معــاوية أمــره إلى (المغيرة بن شعبة) بسب (على) على منــابر الكــوفة حتى يبغض أهلها فى (على) وبينــه .

ولكى تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن ، ويزداد غضب الكوفيين على (معــاوية) ، « وكانت هذه اللعنات التى كان يصبها (المغيرة بن شعبة) على (على) هى الزيت الذى يسكبه (معــاوية) على هذه الجذوة ، فازداد اشتعالها وتوقدها ، إذ هاج الشيعة ، وقبض (زياد)

(٣) أدب السياسة ص ٣٤ وما بعدها ، حياة الشعر فى الكوفة ص ٥٢ .

والى الكوفة على كبرائهم سنة ٥١ هـ وأرسلهم إلى معـاوية فقتـل منهم ثمـانية(٤) ٠ ٠

ولمـا تولى (يزيد) الخـلافة أرسـل إلى عامله بالمدينة ليأخذ له البيعـة من كبـار الصحابة ومنهم (الحسين بن على) الذى رفض ، وراسلته الشيعة فى الكوفة أن يخـرج إليهم ليقودهم فى حـربهم ضد (يزيد) لكنهم خـذلوه ، ومع ذلك أبلى بلاء عظيما مع القـلة التى معـه حتى قتلوا جميعا فى كربلاء فى العاشر من المحـرم سنة ٦١ هـ ٠

وكان قتـل (الحسين) عاملا مهما فى إذكاء التشيع وثورة الشيعة ونشـر مذهبهم بين الفـرس الذين عملوا على إسقاط بنى أميـة حتى تحقق لهم ذلك عام ١٣٢ هـ ٠

وقد شعر أهـل الكوفة بتقصيرهم فى حق (الحسين) ، وأرادوا تعويض ما فاتهم ، فجمعوا جموعهم يريدون الثـأر للحسين وخرجوا فى أربعـة آلاف ، والتقوا بالأمويين فى (النخيلة) وانتهت المعـركة بهزيمة الكوفيين على يد (عبيد الله بن زياد) ٠

* * *

---

(٤) راجع : الطبرى ١٤١/٦ ـ ١٦١ ، وحياة الشعر فى الكوفة ص ٦٤، وأدب السياسة ص ٣٩ ٠

٣ ـ الخـــوارج

كان النصـــر وشيكا لعلى وجنـــده لكن جند (معـــاوية) رفعـــوا المصاحف على أسنة الرماح ونادى مناديهم : (الله الله فى العـــرب ، الله الله فى الاسلام، كتاب الله بيننا وبينكم)، حينئذ اختلف أنصار (على) بين قابل للتحكيم ورافض له . إذ أدرك هؤلاء أنها خدعة لجـأ إليهـا فـريق (معـــاوية) .

ولمـا قبـل (على) التحكيم ومثـله (أبو موسى الأشعرى) ، واختـــار (معـــاوية) (عمـــرو بن العاص) ممثلا عنه ، تحلل إذ ذاك قوم من جند (على) ساخطين على التحكيم الذى رضيه وقالوا : (لا حكم إلا الله) . وطالبوا (عليا) أن يقر بالخطأ على نفسه فإن فعل عادوا إليـه ، لكن عليـــا أبى .

فخـرج القوم إلى بلد تسمى (حـــروراء) ولذا سموا بالحرورية ، كما سمـــوا بالمحكمة : أى الذين يقولون (لا حكم إلا الله) ، وسمـــوا (بالخـــوارج) لأنهم خرجـــوا على (على) ـ كـــرم الله وجهـــه ـ ، وقيـــل : لأنهم خرجوا فى سبيل الله ، وسموا (بالشـــراة) لأنهم اشتروا الحيـــاة الأخـــرى بالدنيـــا وشروا أنفسهم ابتغـــاء مرضاة الله(١) .

وظل الخوارج شوكة فى جانب الدولة الأموية يهددونها ويحاربونها حـــربا تكاد تكون متواصلة ، فى شدة وشجاعة نادرتين .

ومن أشهر رجـــالهم :

---

(١) راجع للتفصيل والاستزادة :
تاريخ الطبرى ، مروج الذهب ، تاريخ اليعقوبى وغيرها .

(نافـع بن الأزرق ، وقطـرى بن الفجـاءة) .

ولو أن الخوارج كانوا كتلة واحدة لكانوا فى منتهى الخطـورة على الدولة الأموية ، لكنهم اختلفوا فصـاروا شيعا متفرقة بلغت نحـو العشرين من أشهرهم :

- **الأزارقـة** : أتبـاع (نافع بن الأزرق) - وكان فقيها مقدما فى فقـه الخوارج .. وقد انتهت زعامتهم أخيرا إلى (قطـرى بن الفجـاءة) ثم انقسموا عليـه .

وهذه الفـرقة أكثر فـرق الخوارج عددا ، وأعظمها قـوة ، وأشدها قسوة على مخالفيهم ، بل كانوا أشداء على أنفسهم .

ولذا كرههم المسلمون وحاربوهم حتى قضوا عليهم(٢) .

- **النجـدات** : أتبـاع نجدة بن عامر الحنفى ، وكان فى البداية من الأزرق إلا أن (نجدة) خالف (نافع بن الأزرق) وانفصـل عنه سنة ٦٦ هـ .

- **الصفـرية** : أتبـاع (زياد بن الأصفر) ويطلق عليهم (صفرية) أو (زيادية) وكان (زياد) - أيضـا - من أتباع نافع بن الأزرق لكنه انشق عليـه .

- **الإباضيـة** : أتبـاع (عبد الله بن أباض التميمـى) - وكان هو أيضا من أتباع (الأزرق) لكنه انشق عليه .

ولكل فـريق تعاليمـه التى تبعده عن الفـرق الأخرى ، وتزيد هوة الخلاف بينهم . غير أنهم يتميزون جميعا بعدة مميزات أهمها :

● التشدد فى العبـادة ، والانهماك فيها .

---

(٢) راجع : الملل والنحل ١٠٩/١ الفرق بين الفرق : ٦٢ .

- الشجاعة والشدة حين البـأس ٠
- إخلاصهم لعقيـدتهم ٠
- تعصبهم المقـوت ٠

وقد وصفهم أبو حمـزة الخـارجى ، وهو أحد نسـاك الاباضية وخطبائهم بقوله :

« شباب والله مكتهلون فى شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيـلة عن الباطل أرجلهم ، انضـاء عبـادة ، وأطلاح سهر(٣) ، نظر الله إليهم فى جوف الليـل منحنية أصلابهم على أجـزاء القـرآن كلما مر أحدهم بآية من ذكـر الجنة بكى شـوقا إليها ، وإذا مـر بآية من ذكـر النـار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيـه ، موصول كلالهم بكلالهم ، كلال الليـل بكلال النهـار ، وقد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم ، واستقـلوا ذلك فى جنب الله ، حتى إذا رأوا السهـام قد فوقت(٤) ، والـرماح قد أشرعت ، والسيوف قد انتضيت ، ورعـدت الكتيبة بصـواعق المـوت وبرقت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعد الله ، ومضى الشـاب منهم قدما حتى اختلفت رجـلاه على عنـق فرسـه ، وتخضبت بالدماء محاسن وجهـه فأسرعت إليه سباع الأرض ، وانحطت عليـه طير السماء ، فكم من عين فى منقار طير ، طالمـا بكى صاحبها فى جوف الليـل من خوف الله ! وكم من كف زالت عن معصمها طالمـا اعتمد عليهـا صاحبها فى جوف الليـل بالسجود لله ٠ ثم قال : آه آه

---

(٣) أطلاح : جمع طلح وهو المهزول المعيى ٠

(٤) فوقت : جعلت لها الأفواق ، والفوق ـ بالضم ـ موضـع الوتر من السهم ٠

(ثلاثا) ثم بكى ونزل »(٥) .

وروى أن (عـروة بن أدية) وكان مقدما فيهم - أتى إلى (زياد ابن أبى سفيان) ، فسـأله عن الخلفـاء ، فتولى أبا بكر وعمر وأثنى عليهما ، ووقـع فى عثمان وعلى ، وسب معـاوية سبا قبيحا ، ثم سأله زياد عن نفسـه ، فقال : أولك لزنيـة ، وآخـرك لدعـوة ، وأنت فيما بينهما بعد عاص لربك ، فأمـر زياد فضربت عنقـه ، ثم دعا مولاه ، وقال له : صف لى أمـره واصدق ، فقال : أطنب أم أختصـر ؟ فقال : بل اختصـر .

فقال : ما أتيتـه بطعـام فى نهـار قط ، ولا فرشت له فراشا بليل قط ، وهكذا كان (ابن أدية) صواما قواما ، قال الشهرستانى - معلقا - : هذه معاملته واجتهاده ، وذلك خبثه واعتقاده(٦) .

وهذه الصفات : الشدة فى الدين ، والإخلاص للعقيدة ، والشجاعة النـادرة ، يضاف إليهـا العـربية الخالصـة هى التى جعلت للخوارج أدبا خاصا يمتاز بالقوة شعرا ونثرا(٧) كما سيأتى بعد .



(٥) البيـان والتبيين ١٢٥/٢ .
(٦) الخليفة المفترى عليه ، عثمان بن عفان : محمد الصادق عرجـون ص ٢٥ وراجع : الفتوة عند العرب ، عمر الدسوقى ص ٢١١ .
(٧) فجـر الإسـلام : ٢٦٢ ، ٢٦٣ .

٤ ـ المرجئـــة

وكلمـة (المرجئـة) ماخوذة من أرجأ بمعنى أمهـل وأخر ، وسموا كذلك لأنهم لزموا الحيدة ، ولم يقضوا على أى فـرقة بالخطأ ، وارجـأوا امـر هؤلاء المختلفين الذين سفكوا الدماء إلى الله عز وجل ، فلا يقضون بحكم على هؤلاء ولا على أولئـك .

وقد نشـأت المرجئة لمـا رأت الخوارج يكفـرون عليـا وعثمـان والقائلين بالتحكيم ، ورأت من الشيعة من يكفر أبا بكر وعمـر وعثمان ومن ناصروهم وكلاهما يكفـر الأمويين ويلعنهم ، والأمويون يقاتلونهم ويرون أنهم مبطلون ، وكل طائفة تدعى أنها وحدها على الحق ، وأن من عداها كافـر وفى ضـلال مبين ، فظهرت هذه الفـرقة تسالم الجميع ولا تكفر طائفة منهم . وقالوا : إننا نطيع الخليفة ولو كان فاسقـا ، ونرجىء أمـره إلى الله يتولى حسابه .

« على أن كثيرا من كبرائهم قد نهضوا سياسيا ودينيا لمحاربة بنى اميـة وتقويض ملكهم . فـ (سعيد بن جبير) ثار على (عبد الملك) وعلى (الحجاج) وقتـل شهيدا . (وغيلان بن مـروان) صلب ومثل به فى عهد (هشـام) »(١) .

ومن أشهر شعراء المرجئة : (ثابت قطنــة) ، الذى كشف عن مذهبهم فى قصيدة يقول فيها(٢) :

نرجـى الأمـــور إذا كانت مشبهـــة
ونصـدق القـول فيمن جـار أو عنـدا

---

(١) أدب السياسة ، د. أحمد الحوفى ، ص ١٢٧ .
(٢) الأغـانى : ١٣/٥٠ .

المسلمـون على الإســلام كلهـم

والمشـركون استـووا فى دينهم قـددا

وقد اتهمهم البعض بالكفر والشـرك ، فهذا (نصـر بن سيار) يقـول(٣) :

فامنـح جهـادك من لم يرج آخـرة

وكـن عـدوا لقـوم لا يصـلونا

واقتـل مـواليهم منـا وناصـرهم

حينـا تكفـرهم والعنهـم حينـا

والقـائلين سبيـل الله بغيتنـا

شـر العبـاد إذا خـابرتهم دينـا

والقـائلين غضبـا لله بغيتنـا

لبعـد مـا نكبـوا عمـا يقـولونا

فاقتلهـم غضبـا لله منتصـرا

منهـم بـه ودع المـرتاب مفتـونا

إرجاؤكم لـزكم والشـرك فى قـرن

فـأنتم أهـل إشـراك ومرجـونا

لا يبعـد الله فى الأجـداث غيـركم

إذ كـان دينـكم بالشـرك مقـرونا

ألقـى به الله رعبـا فى نحـوركم

والله يقضى لنـا الحسـنى ويعلينـا

*   *   *

---

(٣) تاريخ الطبرى ٢٢٣/٨ .

٥ ـ الزبيـريون

ترجـع نشـأة هذا الحزب إلى ما بعد مقتل عثمان ، ولذلك أن (الزبير بن العوام) و (طلحة بن عبيد الله) بايعا (على بن أبى طالب) ثم خرجا من المدينة بدعـوى العمـرة ونقضـا ببيعتهما ، وكانت السيدة عائشة بمكة ، فانضمت إليهما ، وثاروا على على ـ كـرم الله وجهـه(١) ـ .

---

(٣) ذكـرالقرطبى عند تفسير قول الله تعالى (وقرن فى بيوتكن .. الآية) أن السيدة عائشة ـ رضى الله عنها ـ كانت كلمـا سمعت سمعت هذه الآية تبكى حتى تبل خمارها . هكذا عن الثعلبى . ونقـل القرطبى عن ابن عطية : أن بكاء عائشة رضى الله عنهـا إنما كان بسبب سفرها أيام الجمـل ، وحينئذ قال لهـا عمار : إن الله قد أمـرك أن تقرى فى بيتك .

قال ابن العربى :

تعلق الرافضـة ـ لعنهم الله ـ بهذه الآية على أم المؤمنين عائشة ـ رضى الله عنها ـ إذ قالوا : إنها خالفت أمـر رسول الله ـ ﷺ ـ حين خرجت تقود الجيش وتباشر الحروب ، وتقتحم مازق الطعن والضرب فيما لم يفرض عليها ولا يجـوز لها .

قالوا : ولقد حصر عثمان ، فلمـا رأت ذلك أمـرت برواحلها فقربت لتخـرج إلى مكة ، فقال لها مـروان : أقيمى هنا يا أم المؤمنين ، وردى هؤلاء الرعاع ، فإن الاصلاح بين الناس خير من حجـك .

=

وكان (عبد الله بن الزبير) من أشد الدعـاة إلى حرب (على)، ويقال إنه كان يطمـع فى الخـلافة .

وقد اعتمد حـزبه فى الدعوة إليه على أسباب :

=

قال ابن العربى : قال علمـاؤنا رحمة الله عليهم - إن عائشـة رضى الله عنها نذرت الحج قبـل الفتنة فلم تر التخلف عن نذرها ، ولو خرجت فى تلك الثائرة لكان ذلك صوابا لها .

وأما خروجها إلى حرب الجمـل فما خرجت لحـرب ، ولكن تعلق الناس بها ، وشكوا إليهـا ما صـاروا إليه من عظيم الفتنـة وتهارج الناس ، ورجـوا بركتها ، وطمعوا فى الاستحياء منهـا إذا وقفت إلى الخلق ، وظنت هى ذلك فخرجت مقتدية بالله فى قوله :

(لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمـر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس) ، وقوله : (وإن طائفتـان من المؤمنـين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) . والأمـر بالإصلاح مخاطب به جميع الناس من ذكـر وأنثى ، حـر وعبد ، فلم يرد الله تعـالى بسابق قضـائه ونافذ حكمه أن يقـع إصـلاح ، ولكن جـرت مطاعنات وجراحات حتى كاد يفنى الفريقان ، فعمد بعضهم إلى الجمـل فعرقبه ، فلما سقط الجمـل لجنبه أدرك محمد بن أبى بكر عائشة - رضى الله عنها - فاحتملهـا إلى البصرة ، وخرجت فى ثلاثين امرأة قرنهن (على) بها حتى أوصلوها إلى المدينة برة ، تقية ، مصيبة ، مثابة فيما تأولت ، مأجورة فيما فعلت .

الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ، ط دار الشعب .

- أن الخلافة حق لقريش وحدها ـ كما أعلن (أبو بكر) يوم السقيفة ـ وأن (عبد الله) هو أكفأ القرشيين لها .
- أن (عثمان) حينما حوصر أمر على داره (عبد الله بن الزبير)
- أن (عبد الله) يمت إلى الرسول بعدة صلات :

فأبوه الزبير حوارى الرسول ، وابن عمة صفية ، وابن أخى خديجة ـ رضى الله عنها ، وهو من السابقين إلى الإسلام ، وأبلى فى الغزوات بلاء حسنا ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة ، وأحد الستة الذين اختارهم (عمر) لينتخبوا خليفة من بينهم .

وقد بدأ (عبد الله) يدعو لنفسه بعد مقتل (الحسين) ، وكان قد نقض بيعة يزيد ، وهرب من المدينة إلى مكة . وظل الأمويون يحاولون القضاء عليه وعلى أعوانه حتى مات (يزيد) ، ثم (معاوية الثانى) ، وكادت الخلافة تؤول إلى (ابن الزبير) إذ استجابت له الحجاز والعراق ومصر والشام ما عدا الأردن . بل إن (مروان ابن الحكم) زعيم بنى أمية نفسه هم أن يبايع (ابن الزبير) لولا أن منعه (عبيد الله بن زياد) واستثاره لحربه . . وانهزم جيش (ابن الزبير) فى وقعة (مرج راهط ٦٤ ـ ٦٥) .

وتولى الخلافة (عبد الملك بن مروان) الذى بعث (الحجاج) إلى (عبد الله بن الزبير) فحاصر مكة ثمانية أشهر وسبع عشرة ليلة ، وضرب الكعبة بالمجانيق فاحترقت سنة ٧٣ هـ ، وتخلى أتباع (ابن الزبير) عنه لكنه لم يستسلم وثبت حتى قتل سنة ٧٣ هـ ، وصلبه (الحجاج) بمكة .

ومن أشهر شعـراء الزبيريين : (عبد الله بن قيس الرقيات) ، (وأبو وجـزة السعدى) .

هذه هى أهم الأحـزاب السياسية التى نتجت عن الصراع بين على ومعـاوية(٢) ، وكان الصـراع بين هذه الأحزاب قد أثمـر ثمـرا عظيما تمثـل فى تراث أدبى رائع .

ذلك أن لكل حزب أدباءه وشعراءه المنافحين عنه ، وكان الأدب آنذاك بمثـابة وسـائل الإعلام اليوم .

ويعد الأدب الأموى سجلا مهما ورافدا أساسيا لتاريخ ذلك العصر لأن الشعراء كانوا يسجلون بشعرهم هذه الصراعات ، ويصورون المعارك الحـربية ، تارة مفتخرين وأخرى معتذرين .

* * *

---

(٢) تاريخ الطبرى ٨/٢٣٣ .

(٢) يذكـر بعض المؤرخين أن نشـأة بعض هذه الفـرق كان سـابقا على الصراع بين على ومعـاوية .. فالتشيع مثلا بدأ فى خـلافة عثمان على يد عبد الله بن سبأ المعـروف بابن السوداء .. وذكروا: أن : الخوارج فرقة تمتد جذورها إلى عهد النبى - ﷺ - وأن من متقدميهم الذين اشتركوا فى إشعال نيران الفتنـة العثمانية (ابن الكواء) وهو من رءوسهم ، خـرج على عثمان بن عفـان رضى الله عنه فى جماعة من أهل الكوفة .

راجع : فجر الإسلام لأحمد أمين ، والخليفة المفترى عليه عثمان ابن عفان ، لمحمد الصادق عرجون .

ثانيا : مجتمع العصر الأموى

توفى الرسول – ﷺ – ولم يتعد الإسلام جزيرة العرب ، ثم تتابعت الفتوح بعد ، ففتح العراق وكان يسكنه بعض العرب من ربيعة ومضر ، وبعض الفرس ، وأنشأ العرب مدينتى الكوفة والبصرة بأمر عمر بن الخطاب ٠

وفتحت فارس وكان يسكنها الفرس وقليل من اليهود وبعض الرومانيين ٠ وفتح الشام وكان قد ورث كثيرا من مدنيات الأمم الغابرة من فينيقيين وأموريين وكنعانيين ، وفراعنة ، ويونان ، ورومان ٠٠

وكان يسكن الشام عند الفتح الإسلامى السوريون أهل البلاد والأرمن واليهود وبعض الروم وبعض القبائل العربية مثل غسان ولخم وجذام وكلب وقضاعة وبعض تغلب ٠

وفتحت مصر فى عهد عمر بن الخطاب وكان يسكنها المصريون ومزيج من أمم أخرى كاليهود والرومان ٠

وفتحت بلاد المغرب من برقة وتونس والجزائر ومراكش إلى مضيق جبل طارق وكانت فى يد الرومان ٠

ثم فتحت السند وبخارى وخوارزم وسمرقند ، وكذلك فتحت الأندلس لكن أثرها لم يظهر فى هذا العصر ٠

نتج عن هذه الفتوح امتزاج قوى بين الأمة الفاتحة والأمم المفتوحة مزج فى الدم ، ومزج فى النظم الاجتماعية ، والآراء العقلية ، والعقائد الدينية ٠

وأسفرت هذه الفتوح عن أرقاء كثير من الأمم المفتوحة كثرة هائلة حتى يروى المسعودى :

أن الزبير بن العوام كان له ألف عبد وألف أمة (١) .

هؤلاء الأرقاء أنتجوا عددا عديدا فى الجيل الثانى منهم من يعد سادات التابعين ، وخير المسلمين (٢) .

امتزجت العادات الفارسية والرومانية بالعادات العربية ، وتأثرت الحياة فى شتى جوانبها من هذا الامتزاج .

واتسعت الحضارة فى أيام الأمويين ، إذ بنيت المدن والدور والقصور وتدفقت الأموال من البلاد المفتوحة إلى الشام ودمشق خاصة فكثر الترف وخصوصا بين أمراء البيت المالك ورجال الدولة ، وعم الرخاء سائر البلاد ، حتى وصل الأمر يوما ـ فى خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١ هـ) ـ إلى أن الرجل كان يحمل زكاته على يده ويطوف بها فى أرجاء الامبراطورية فلا يجد مستحقا يدفعها إليه (٣)

ونستطيع أن نتوقف قليلا عند الحواضر الكبرى آنذاك لنتعرف على حالة أهلها :

المدينة ومكة :

إذا كانت الخلافة قد تحولت من المدينة إلى دمشق فإنها ظلت تحتفظ بالتراث الدينى ، كما ظلت مستقرا لأكثر طوائف المجتمع العربى رقة ودماثة . وهيأت لذلك عوامل مختلفة من (الثراء الواسع) ومما دخلها من عناصر أجنبية كثيرة أسرعت بها إلى التحضر ، بل إلى الترف البالغ .

---

(١) راجع : فجر الإسلام ، أحمد أمين ص ٨٨ .
(٢) نفسه : ص ٩١ .
(٣) تاريخ الأدب العربي ، عمر فروخ ٣٥٤/١ .

أما الثراء فمرجعه إلى ما خلفه فيها الصّحابة الأولون لأبنائهم من أموال جلبوها من الفتوح ، فقد رجعوا إليها بحمول الذهب والفضة والجواهر ، وابتنوا القصور ، وبالغوا فى تجميلها وزخرفتها ، واتخذوا الخدم من الرقيق المجتلب ٠

وكان الأمويون يغدقون عليهم إغداقا استرضاء لهم ٠

ولم تكن مكة أقل ثراء ورفاهية من المدينة ، فقد تحضرت تحضرا كبيرا ، حتى إن معاوية ابتنى له فيها دورا استحضر لها بنائين من الفرس ، ومع ذلك كان إذا حج وقف مبهوتا إزاء بعض القصور الأخرى

وغرقت مكة فى الترف والنعيم حتى إن نفرا من أهلها كانوا يأكلون ويشربون فى صحاف من ذهب وفضة ٠

وقد نتج عن هذا الترف والنعيم فى المدينة ومكة شباب عاطل كان يقضى وقته فى سماع الغناء واللهو وكان يغنى لهم الموالى(٤) ٠

الكوفة والبصرة :

لما فتح المسلمون العراق أمر (عمر بن الخطاب) ببناء مدينتى الكوفة والبصرة ، أما الكوفة : فقد نزلها كبار الصحابة وأقاموا فيها دورا لهم ، فقد نزلها سبعون بدريا ، وثلاثمائة من أصحاب الشجرة ، ولذلك قيل عنها : (إنها منزل خيار الصحابة) ٠

وكان لهؤلاء الصحابة إقطاعات كبيرة ، اقطعها إياهم (عمر بن الخطاب) فبنوا فيها دورا كانت بمثابة قصور ٠

واصبح هؤلاء الصحابة ذوى ثروات ضخمة وأشبهوا (المليونيرات) فى عصرنا ٠ فهذا الصحابى الجليل (خباب بن الأرت) أحد البدريين

---

(٤) راجع : العصر الإسلامى : د٠ شوقى ضيف، ١٣٩ ـ ١٤٨ ٠

الذين نزلوا الكوفة يقول : « لقد رأيتنى مع رسول الله - ﷺ - ما أملك دينـارا ولا درهما ، وإن فى ناحية بيتى فى تابوتى لأربعين ألف ألف، ولقد خشيت أن نكون قد عجلت لنـا طيباتنا فى حياتنا الدنيا »(٥) .

وأما البصـرة ، فقد كانت مذعنة لـ (معـاوية) وابنه (يزيد) ، وكان وقوعها بالقـرب من الخليج العـربى مهيئا لازدهار التجارة بها ، وكانت الزراعـة مزدهرة بها ولا سيما زراعة النخيـل بفضل النهيرات الكثيرة التى اشتقت من دجلة .. وأيام (ابن الزبير) كانت تابعـة له وولى عليها أخاه (مصعبا) وما لبثت أن عادت ولاية أموية ، وليهـا (الحجاج الثقفى) لأكثر من عشرين عـاما ، وتعصب لقبيلته الكبرى قيس فجنحت إليه وجنح إليها ، ولك أن تتخيل كيف كان يغدق على قبيلتـه حتى ينـال تأييـدها فى إخمـاد الثـورات التى تقـوم هنـا وهنـاك(٦) .

خـراســـان :

أما خراسـان فيمكن أن يرد شيوع المديح فيها إلى ظهور طبقـة ضخمة من الأثرياء كانت أخلاطا من الحكام الذين أداروا شئون الدولة فى الخـراج ومن الأغنيـاء الذين ملكوا الإقطاعات ، بينما ظل وراءهم جميعـا جمهور كبير يتلقى منهم رزقه إما بالعمل لهم ، وإما بما يقدم لهم من مديح ، يقول ذو الرمة(٧) :

---

(٥) الطبقات الكبرى : ابن سعد ، ١٧١/١/٣ ، حياة الشعر فى الكوفة ١٦٤ ، الوافى : درهم وأربعة دوانق .

(٦) راجع : العصر الإسلامى د. شوقى ضيف ، ص ١٦١ وما قبلها .

(١) ديوانه ٦٣٣ ، العصر الإسـلامى ص ٢٠٨ . والخضرم : كثـير الخير والجـود .

ومـا كان مـالى مـن تـراث ورثتـه
ولا ديـة كـانت ولا كسـب مـأثـم

ولكن عطـاء الله من كـل رحـلة
إلى كـل محجـوب السـرادق خضـرم

ويمكن تقسيم المجتمع الأموى بعامة إلى طبقات :

- **الطبقـة الأولى :** يصفها بعضهم بأنهـا (أرستقراطية) وهـذه الطبقة تمثلها طائفتان :

(أ) **الطائفة الأولى :** وهم كبار الصحابة الذين أخذوا مكانتهم من صحبتهم للرسول - ﷺ - ولإذعانهم لمـا كان يأمـر به وينهى عنه ، ولبلائهم العظيم فى الغـزوات مع الرسول ﷺ ٠

وقد عـرفنا أنهـم أثروا ثراء من العطـايا التى كان يوزعهـا عليهم (عمـر بن الخطاب) - رضى الله عنه - ٠

(ب) **الطائفة الثـانية :** وهم أولئك الذين اعتمدوا على الشرف التليد الموروث ، والطارف المكتسب ، وهؤلاء هم بيت الخلافة ، والولاة والعمـال ورؤساء القبائل وأشرافها ٠٠

- **الطبقة الثانيـة :** وهم الجند المقاتلون ، وأولئك الذين لم يتـح لهم حظ من الثراء ٠

- **الطبقة الثالثـة :** وهم الأعاجم (المـوالى) الذين انتشروا فى أرجاء الدولة الإسلامية ٠٠ حتى إنهم كانوا يزيدون عددا فى بعض المدن على العرب ٠ فهذه الكوفة مثـلا كان أكثر من نصف سكانها من المـوالى ٠

ولم يكن العـرب يسمحون للموالى إلا بالأعمال التى كانوا يأنفون من القيـام بها ، كالزراعة والصناعة والحـرف اليدوية ، أو بالحرف التى لا يجيدها العـرب كجباية الضرائب التى عهدوا بها إلى الدهاقين الفـرس ملاك الأرض الطيبة فى المملكة الساسانية القديمة الذين كانوا يمثلون الأرستقراطية الفارسية .

وامتلأت نفوس الموالى سخطـا وحقدا على العـرب بسبب هـذه المعاملة الشاذة التى لم يقرها الإسلام(٨) ..

* * *

ثالثا : الثقافة فى ظل بنى أمية

ازدهرت الثقافة فى العصر الأموى ازدهارا كبيرا فى شتى العلوم بدءا من القرآن الكريم حفظا وتفسيرا ، والحديث الشريف رواية وتدوينا وكذا الفقه وسائر العلوم ..

وكانت مكة والمدينة - لمكانتهما الدينية - من أهم المراكز العلمية فى ذلك العصر ، يقصدهما طلاب التفسير والحديث والفقه ..

وفى مكة أسس (عبد الله بن عباس) حبر الأمة ، ترجمان القرآن مدرسة التفسير وقد تخرج على يديه شيوخ كبار أمثال : (سعيد بن جبير ، مجاهد بن جبر ، طاوس بن كيسان ، عكرمة مولى ابن عباس ، عطاء بن أبى رباح) .

وكان (معاذ بن جبل) من أفضل شباب الأنصار علما وسخاء وحلما وكان يعد من أعلم الصحابة بالحلال والحرام ومن أقرئهم للقرآن ..

وأما المدينة فكانت زاخرة بالعلماء الأفذاذ أمثال : (عمر وعلى) ، لكن أشهر من امتاز بالعلم فيها وتخصص فيه (زيد بن ثابت) ، (وعبد الله بن عمر) غير أن (زيدا) كانت لديه قدرة فائقة على استخراج الأحكام من الكتاب والسنة ومن الرأى - إذا لم يكن كتاب ولا سنة - حتى قال (سليمان بن يسار : « ما كان عمر ولا عثمان يقدمان على زيد بن ثابت أحدا فى القضاء والفتوى والفرائض والقراءة»

وكان ذا عقل رياضى ، فكان أعلم الناس بالفرائض (المواريث) .

---

(٨) راجع : حياة الشعر فى الكوفة ، ١٦٧ وما بعدها .

وقد أسست فى المدينة مدرسة للتفسير ، أرسى دعائمها (أبى بن كعب) ، وتخرج على يديه علمــاء كبار ٠

وفى الكوفة أسس (عبد الله بن مسعـود) مدرســة التفســير ، وتخرج على يديه أعــلام فى التفسير مثــل : (علقمــة ، ومسروق ، وشريح، والشعبى) وغيرهم ٠ وتسمى هذه المدرسة فى التفسير بمدرسة أهــل الــرأى ٠

وفى البصــرة تصدى للفتوى (أبو موسى الأشعرى) ، (أنس بن مالك) وتخرج فيها : « الحسن البصرى ، وابن سيرين »(١) ٠٠

* * *

(١) راجع لمدارس التفسير : مقدمة فى أصول التفسير لابن تيمية ، والتفسير والمفسرون : الجزء الأول ، د٠ محمد حسين الذهبى ، من ص ١٠٤ إلى ص ١٢٨ ٠

الحيـاة الأدبيـة فى العصـر الأمـوى

نهض لأدب فى عصـر بنى أميـة نهضة كبيرة ، كان وراءها عدة عوامل من أهمها :

١ ـ اهتمام الخلفاء والأمراء بالأدب والأدباء :

ذلك أن الأدب كان فى نظـر هؤلاء وسيلة مهمـة من وسائل التربية أخذوا بها أنفسهم ، ونصحوا معلمى أبنـائهم أن يجعلوا هـذا العلم من أسس منهجهم ٠

ذكـر الجاحظ وابن عبد ربه :

أن عتبة بن أبى سفيان قال لعبد الصمد مؤدب ولده ـ فيما قال ـ : « علمهم كتاب الله ، ولا تكرههم عليه فيملوه ، ولا تتركهم منه فيهجروه ٠٠ ثم روهم من الشعر أعفـه ، ومن الحديث أشـرفه ، ولا تخـرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه ، فان ازدحام الكلام فى السمع مضلة للفهم ٠٠٠ »(١) ٠

وكان للخلفـاء رغبة فى إحيـاء لسـان العـرب ، لأنهم تربوا على الفصحى وحب الشعر ، وبعضهم كان شـاعرا (كالوليد بن يزيد) ٠ وبعضهم أوتى حاسـة نقدية مرهفة ، وبعضهم رزق حافظة واعيـة ، يستشهد بالشعـر وقت الحـاجة ٠

● حدث معـاوية بن أبى سفيان عن نفسـه قال :

« إجعلوا الشعر أكبر همكم ، وأكثر دابكم ، فلقد رأيتنى ليـلة الهرير بصفين وقد أتيت بفـرس أغر محجـل بعيد البطن من الأرض

---

(١) البيان والتبيين ٧٣/٢ ،والعقد الفريد ٢٧٢/٢ ٠

وانا أريد الهـرب لشدة البلوى ، فما حملنى على الإقامة إلا أبيـات عمـرون بن الإطنـابة :

ابـت لـى همتـى وأبى بـلائى
واخـذى الحمـد بالثمـن الربيـح

وإقحامى علـى المكـروه نفسـى
وضربى هـامة البطـل المشـيح

وقـولى كلمـا جشـات وجاشـت
مكـانك تحمـدى أو تسـتريحى

لأدفـع عن مآثـر صـالحات
واحمى بعـد عن عـرض صحيح(٢)

★ ووفد (الأخطل) على (معاوية) فقال : إنى قد امتدحتك بأبيات فاسمعها ، فقال : إن كنت شبهتنى بالحية والأسـد أو الصـقر فلا حاجة لى بهـا ، وإن كنت قلت كما قالت الخنسـاء :

فما بلغ المهـدون للناس مدحـة
وإن أطنبوا إلا والذى فيك أفضل

ومـا بلغـت كف امـرى متنـاولا
من المجـد إلا والذى نلت أطـول

فقال الأخطـل : والله لقـد أحسـنت (أى الخنسـاء) وقـد قلت فيك بيتين ما هما بدونهما ، ثم أنشـد :(٣)

---

(٢) العمـدة ١/١٠

(٣) زهر الآداب للحصرى القيـروانى ص ٢٨٣ ـ تحقيـق البجـاوى ط الحلبى .

إذا مت مات العـرف وانقطع النـدى
فلـــم يبــق إلا من قليــل مصــــــرد

وردت اكـــف السـائلين وأمســكوا
عن الدين والدنيــا بحزن مجــدد

واكثر الخلفــاء الأمويين شـــغفاً بالأدب والشــعر ثلاثة : معــاوية وعبد الملك وهشــام ، حكم كل منهم أكثر من عشرين ســنة ، وكانت لهم عناية بالأدباء وخصوصا عبد الملك بن مروان ٠٠ وقد بذل بعض خلفــاء بنى أميــة عناية كبيرة فى جمــع ديوان العــرب وأشــعارها وأخبارهــا وانســابها ٠

فهذا (الوليــد بن يزيد) بن عبد الملك حين أراد أن يجمع ديوان العرب وأشعارها وأخبارها وأنسابها ولغاتها استعار من (حماد) ومن (جناد بن واصل الكوفى) ما عندهما من الكتب والدواوين فدونها عنده ثم رد إليهما كتبهما (٤) ٠

ولم يكن (الوليد بن يزيد) هو وحـده الذى فعل ذلك ، وإنمــا ســبقه من خلفـــاء بنى أميــة من اهتــم بمثــل ذلــك (كالوليــد بن عبد الملك) (٥) ٠

٢ ـ مجالس الخلفــاء والأمــراء :

اتخــذ بنــو أميــة الأدب ـ والشــعر خصوصــا ـ وسـيلة لتعضــيد ملكهــم وتقــوية دعائمهم ، فأغدقوا الأمــوال على الشــعراء ترغيبا فى مدحهم وكانت (أبواب الخلفاء وأشــباه الخلفاء من ولاة وقــواد وأمراء

---

(٤) الفهرســت لابن النديم ١٣٤
(٥) مصادر الشعر الجاهلى ص ١٥٨

القبلة التى يتطلع إليها كبار الشعراء ، والسدرة التى يحلمون بالانتهاء إليها والاستمتاع بظلها الوريف وأنوارها الذهبية الساحرة)(٦) .

وتسابق الشعراء لإرضاء الخلفاء والأمراء حتى يفوزوا بأضخم العطايا ، وكانت مجالس السمر تعقد فى دور الخلفاء يرتادها الشعراء والمغنون والنقاد ، وتعقد المباريات الشعرية ، ويقوم بالتحكيم أولئك النقاد وقد يسهم الخليفة أو الأمير بنصيب فى النقد ، أو يسأل عن أشعر بيت قيل فى كذا ... الخ .

★ سأل عبد الملك بن مروان يوما : أى نساء الجاهلية أشعر ؟ فقال الشعبى : الخنساء . فقال عبد الملك : ولم فضلتها على غيرها ؟ قال : لقولها :

وقائله والناس قد فات خطوها

لتدركه : يا لهف نفسى على صخر

الا ثكلت ام الذين غدوا به

إلى القبر ماذا يحملون إلى القبر

فقال عبد الملك :

أشعر منها - والله - التى تقول :

مهفهف الكشح والسربال منخرق

عنه القميص لسير الليل محتقد

لا يامن الناس ممساه ومصبحه

فى كل فج وإن لم يغز ينتظر

---

(٦) تاريخ الشعر العربى / محمد بن عبد العزيز الكفراوى ٧٨/١

ثم قال : يا شعبى ، لعلــه شــق عليك ما ســمعت !

قال الشعبى : أى والله يا أمير المؤمنين أشد المشقة (٧) ٠

٣ ـ العصــبية القبليــة ٠

تلك التى أجج نيرانها الخلفــاء والولاة الأمويون ، وكانت هــذه العصبيات أو الخصــومات القبليــة موضوعا خطيرا ، يدلى كل شــاعر فيه بدلوه ، ويحاول أن يأتى بكل ما يســتطيع من ثناء على قبيلته أو أزهار فخر يتوجها بها ، وقد أصــبح لكل قبيلة شاعرها الــذى يتغنى بمآثرها فى الجاهلية وما كان لها من أيام وحــروب وأمجاد مختلفة ، وفى الوقت نفســه يصب جام غضبه على القبائل المعادية ، ويحاول أن يطعنها فى صميم شرفها وحسبها الطعنة القاضية ٠

وأصبحت البصرة والكــوفة مسرحــا لهــذه العصــبيات ، وأضحى الشــعر فى هــذا العصر يخوض فى موضوعين كبيرين هما :

ـ الخصومة الســياسية التى اشتعلت بين الخوارج والشــيعة فى جانب والأمويين فى جانب آخــر ٠

ـ الخصــومة القبلية بين العدنانيين والقحطانيين ، وبين بطــون القبائل وشعوبها (٨) ٠

هــذه الخصــومات أثرت الأدب فى العصر الأمــوى إثراء كبيــرا ولا ســيما فن النقائض الشــعرية والخطابة السياسية ٠

---

(٧) أعلام النســاء فى عالمى الجاهلية والإسلام ٣٠٧/١ وراجع : شعر قبيلة بنى ســليم من الجاهلية حتى نهاية العصر الأموى ٠ رسالة دكتوراه من تأليفنا ٠

(٨) راجع / العصر الإسلامى ، التطور والتجديد فى الشعر الأموى ٠

واخـذت كل قبيلـة تسـتحث شـعراءها ليرموا خصـومها بهـذه السـهام اللاذعة ، وخصصـوا لتلك المباريات أوقات وأماكن معروفة ٠

٤ ـ الأسـواق الأدبيـة ٠

وأشـهر تلك الأسـواق المربد والكناسة ، وكان المربد ـ خصوصا ـ مسرحـا لنقائض (جرير والفرزدق والأخطل) وغيرهـم من الشـعراء الذين اقحموا أو اقحموا أنفسهم فى المعركة ٠

وقد اصطفت القبائل وجماهيرها فى حلقات بالمربد والكناسـة ، والناس يقبلون على هـذه الحلقات للفرجـة ، وكل قبيلـة تحـاول أن تستخرج من شاعرها أحد ما فى جعبته من سهام حتى تريش بها القبائل التى عادتها قديما ، ولا تزال تعاديها حديثـا (٩) ٠

وكان (الفرزدق والأخطـل) يعيشـان فى البصرة ولـذلك كانا يختلفان إلى المربد فينشـدان الناس هناك أهاجيهما ، ويستثيران فى ذلك حماس الجماهير ، وأصبح الغرض الأساسى من الهجاء الرغبة فى إعجاب الجماهير من الخصوم وغير الخصوم ٠

٥ ـ رواية الشـعر وتدوينه ٠

ورواية الشـعر الجاهلى لم تبدأ فى عصر الأمويين وإنما بدأت فى العصر الجاهلى ، غير أنها فى القرن الثانى الهجرى أخذت فى طورها الثانى وهو ما يصح أن يطلق عليه دور الرواية العلمية ، وهى تقـوم على الحفظ والنقل والإنشـاد ، كالرواية المجـردة فى دورهـا الأول ، وأضيف إليها الضبط والإتقـان والتحقيق والتمحيص والشرح والتفسـير وشىء من الإسـناد ٠

---

(٩) التطور والتجديد فى الشعر الأموى د / شوقى ضيف ص ١١٠

وكان لكل شاعر رواية هو أول من يسمع شعره ، ويعد أهم وسيلة من وسائل نشر شعره وإذاعته ٠

وقد كان هؤلاء الرواة يكتبون شعر الشاعر ، ويحفظونه فى صحف ودواوين ، ولكنهم مع ذلك يحفظون هذا الشعر فى صدورهم وذاكرتهم وينقلونه فى المجالس والمحافل لإقراءه من صحف(١٠) ٠

أراد (جرير) أن يهجو بنى نمير ، فأقبل إلى منزله وقال للحسين روايته :

زد فى دهن سراجك الليلة وأعدد ألواحاً ودواة ٠ قال : ثم أقبل على هجاء بنى نمير ، فلم يزل حتى ورد عايه قوله :

فغض الطرف إنك من نمير
فلا كعباً بلغت ولا كلابا(١١)

ومع إنتشار الكتابة وتدوين الشعر إلا أن الرواية ظلت لها مكانتها فى إذاعة الشعر بين الناس شفهيا ٠

ومن هنا قال جرير :

وعاو عوى من غير شئ رميته
بقافية أنفاذها تقطر الدما

خروج بافواه الرواة كانها
قرى هندوانى إذا هز صمما(١٢

---

(١٠) مصادر الشعر الجاهلى ص ١٨٩ وما بعدها (بتصرف وإيجاز) ٠
(١٢) نفسه ١٩١ نقلا عن النقائض ٤٣٠
(١٢) نفسه ١٩٢ نقلا عن النقائض ٤٣٠

ومن الرواة الشعراء فى القرن الأول : الطرماح ، ورؤبة ابن العجاج ، وكان ذو الرمة رواية الراعى ، يروى شعره ويجعله إماما ، وكذلك كان جرير والفرزدق ، وعنهما أخذ علماء القرن الثانى بعض علمهم عن الجاهلية وشعرها ٠

قال الجاحظ :

إن الفرزدق راوية الناس وشاعرهم وصاحب أخبارهم ٠ وقال يونس بن حبيب : لولا شعر الفرزدق لذهب نصف أخبار الناس ٠٠ وهذه أبياته التى تدل على معرفته بهؤلاء الشعراء وبشعرهم معرفة واضحة المعالم ، يقول الفرزدق(١٣) :

وهب القصائد لى النوابغ إذ مضوا
وأبو يزيد وذو القروح وجرول(١٤
والفحل علقمة الذى كانت له
حلل الملوك ، كلامه لا ينحل
وأخو بنى قيس وهن قتلنه
ومهلهل الشعراء ذاك الأول(١٥)

---

(١٣) ديوانه ٧٢٠ ـ ٧٢١ ، النقائض ٢٠٠ ـ ٢٠١

(١٣) النوابغ : النابغة الجعدى والذبيانى والشيبانى ٠ وأبو يزيد : المخبل السعدى ٠ ذو القروح : امرؤ القيس ٠ جرول : الحطيئة٠

(١٥) أخو بنى قيس : طرفة بن العبد ٠ هن قتلنه : أى القوافى لأنها كانت سببا فى قتله ٠

والأعشـــيان كلاهمـــا ومـرقش
وأخـو قضاعة قـوله يتمثـل(١٦)

واخـو بنى أسـد عبيـد إذ مضى
وأبـو دواد قولـــه يتنحـــل

وابنـا أبى سـلمى زهيـر وابنـه
وابن الفريعة حين جد المقول(١٧)

والجعفـرى وكـــان بشر قبلـــه
لى من قصائده الكتاب المجمل(١٨)

ولقـــد ورثت لآل أوس منطقـا
كالسم خالط جانبيه الحنظل(١٩)

والحارثى أخـو الحمـاس ورثتـه
صدعا كما صدع الصفاة المعول(٢٠)

وإلى جانب الشعراء الرواة كان يضطلع بروايته شـعر الشـاعر أبناء قبيلته ، وكيف لا وهو لسـانها المدافع عنها ؟؟

فحينمـا أراد عبد الملك بن مروان أن يسـأل عن (ذى الإصـبع العدوانى) وأخبـاره ونسـبه ، وحينمـا أراد أن يسـمع من ينشـده قصيدته (عذير الحى من عـدوان ٠٠) سـأل فى كل ذلك رجـلا من

---

(١٦) الأعشيان : أعشى قيس وأعشى باهلة ٠ أخو قضاعة : أبو الطمحان
(١٧) ابن الفريعة : حسان بن ثابت ٠
(١٨) الجعفرى : لبيد ٠ بشر هو ابن خازم الأسـدى ٠
(١٩) أوس : هو أوس بن حجر ٠
(٢٠) الحارثى : النجاشى ٠

جديلة ـ وعـدوان قبيلة ذى الإصبع بطن من جديلة ـ فلما أجاب الرجل عن كـل ذلك قال لـه عبد الملك : (ادن منى ، فإنى أراك بقومـك عالمـا)(٢١) .

وأما أشهر الرواة المدونين فهما : أبو عمرو بن العلاء (ت١٤٥) ، وحماد الرواية (ت ١٥٦) .

فقـد عنيا عناية كبيرة بالشعر القديم ولم تكن عنايتهما مقصورة على دروس شـفهية يلقيانها على تلاميذهما ، وإنما كانا ـ وغيرهما من العلمـاء ـ يئلان إلى دواوين ومجمـوعات مكتـوية توارثاهـا عمن قبلهما ، وذلك فضـلا عما كانا هما يقيدانه ويدونانه مما يسمعان من الأعراب والرواة ..(٢٢)

يقـول الأصمعى(٢٣) :

(جلسـت إلى أبى عمرو بن العلاء عشر حجج ما سـمعته يحتج ببيت إسـلامى) .

ويلغ به الشـغف بالتدوين أن كتبه (مـلأت بيتا له إلى قريب من السـقف ، ثم إنه تقـرأ فأحرقها كلها ، فلما رجع إلى علمه الأول لـم يكن عنـده إلا ما حفظه بقلبـه ، وكانت عامة أخبـاره عن أعراب قد أدركـوا الجاهلية ..(٢٤) .

وكان عند حمـاد الرواية كتب فيهـا أخبـار الجاهلية وأنسـابها

---

(٢١) الأغانى ٩١/٣ ـ ٩٣
(٢٢) مصادر الشعر الجاهلى ص ١٥٥ بتصرف وإيجاز .
(٢٣) البيان والتبيين ٣٢١/١
(٢٤) نفسـه ص ٣٢١

وأشعارها ، بعضها كتبه بنفسه ، وبعضها كتب من قبله فقـرأه واستفاد منـه فى تدوين كتبـه ٠٠

وهكذا صارت الرواية علما له أصـوله وقواعده ، هـذا إلى جانب التدوين الذى اتسـع فى أخريات العصر ٠٠ وكان لهـذا أثره العظيـم فى صـقل مواهب الشـعراء الأمويين ٠

* * *

الشــعر الأمــوى

فنـونه وخصائصــه

أولا : فنـون الشـعر

١ ـ المــدح

وهــو من أبرز الفنــون الشـعرية القديمة ، وقد تضـاءل شـيئا ما بعـد مجىء الإسـلام ، إلا أنه عـاد ليحتـل مسـاحة واسـعة على خريطة الشـعر فى العصر الأموى ٠ وذلك بسـبب :

* الثراء العظيم الذى كان يعيش فيـه الخلفاء والأمراء ، فكانوا يغـدقون إغـداقا ، استمالة لهذا الشاعر أو ذاك ، ورغبة منهم فى إذاعة أمجادهم الطريفة أو التليـدة ٠٠

* والعربى ـ بطبعة يتأثر برأى الناس فيـه مدحا أو قدحـا ، وقد اكتشف الشـاعر العربى ذلك فاسـتغله أسـوأ اسـتغلال ، وابتز الأموال من السادة تحت تأثير الترغيب تارة والترهيب أخرى ٠

* تفرق الناس واختلافهم إلى أحزاب ، ولكل حزب مؤيدوه من الشعراء المـادحين له الهاجين أعـداءه ٠ وقد ترددت أسـماء كثير من المدوحين على ألسـنة الشـعراء الأمويين بفضل العطايا السخية ٠

ومن هـؤلاء المدوحين :

آل (المهلب بن أبى صفرة) ولا سيما ابنه (يزيد) .. وكان بنو المهلب (من العزة والقوة والكرم والجود بحيث قربهم بنو أمية إليهم حتى استفاض نفوذهم وكثر محبوهم وأصبحوا بمنزلة قريبة لدى الأمويين شبيهة بصلة البرامكة بالعباسيين ...(١)

يقول فيهم الشاعر بكير بن الأخنس(٢) :

نزلت على آل المهلب شاتيا

غريبا عن الأوطان فى سنة محل

فما زال بى إكرامهم واقتفاؤهم

وإلطافهم حتى حسبتهم أهلى

ويقول حمزة بن بيض الحنفى فى مدح مخلد بن يزيد بن المهلب(٣) :

وأبيض بهلول إذا جئت داره

كفانى وأعطانى الذى جئت أسأل

ويعتبنى يوماً إذا كنت عاتباً

وإن قلت : زدني قال : حقا سأفعل

(تراه إذا ما جئته تطلب الندى

كأنك تعطيه الذى أنت سائله)

ولم يخرج فن المدح فى هذا العصر عن إطاره الذى رسمه الجاهليون فالشاعر يبدأ المدح بوصف ناقته وما أصابها من إعياء وتعب حتى

---

(١) الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية ١٢٣
(٢) حماسة أبى تمام ١٦٥/١
(٣) الأغانى ١٥/١٥

وصـل إلى الممدوح ، وذلك لأنه كلمـا كانت الرحلـة شـاقة كان حق المـادح على الممدوح أوفر وأغزر ، وإذا كنا باحثين عن التجديد فى هذا العصر فلا شـك أننا سـنولى عيوننا شـطر شـعر الثلاثة الكبار (جرير والفرزدق والأخطل) لنظفر بمـا نريد ، (لأن نقـاد العصر العباسى وأدباءه اتفقـوا على أنهم أشـعر أهل العصر الأموى)(٤) .. إلا أننـا نجـد هؤلاء فى قصـيدة المدح يسـيرون فى ركاب الجاهليين .

فها هو الفرزدق يقـول :(٥)

اقـول لحرف لـم يـدع رحلهـا لهـا
سـناما وتثوير القطا وهى هجـد
عليـك فتى الناس الذى إن بلغته
فمـا بعـده فى نائـل متلـدد
وإن لـه ناريـن كلتاهمـا لهـا
قـرى دائـم قـدام بيتيـه توقـد
فهـذى لعبط المشـبعات إذا شـتا
وهذى يد فيهـا الحسام المهند(٦)

وهـذا الأخطل يمدح عبد الملك بن مروان قائلا :

إلى امـرى لا تعدينـا نوافلـه
اظفـره الله فليهنىء له الظفـر

---

(٤) التطور والتجديد فى الشعر الأموى ص ١٣١
(٥) ديوانه ص ١٣
(٦) الحرف : الناقة . وما بعـده فى نائل متلدد : أى ليست بك حاجة إلى غيره . عبط المشبعات : ذبحها .

الخائض الغمر والميمون طائره
خليفة الله يستسقى به المطر
وما الفرات إذا جاشت غواربه
فى حافتيه وفى أوساطه العشر(٧)
وزعزعته رياح الصيف واضطربت
فوق الجآجىء من آذيه غدر
مسحنفر من جبال الروم يستره
منها أكافيف فيها دونه زور
يوماً بأجود منه حين تسأله
ولا بأجهر منه حين يجتهر
مفترش كافتراش الليث كلكله
لوقعة كائن فيها له جزر(٨)
مقدم مائتى ألف لمنزلة
ما إن رأى مثلهم جن ولا بشر

---

(٧) تعدينا : تخطئنا . النوافل : العطايا . الغمر : الماء الكثير أو الظلم الشديدة ويقصد هنا المعارك الكثيرة . الميمون طائره : خطه حسن .

(٨) الغوارب : الأمواج . العشر : نوع من الشجر . زعزعته : حركته تحريكا شديدا . الجاجىء : جمع جؤجؤ وهو صدر السفينة . الآذى : الموج . غدر : جمع غدير . مسحنفر : سريع . أكافيف الجبل : جوانبه . زور : ميل . الكاكل : الصدر . الجزر : قطع اللحم تأكلها السباع .

يغشى القناطـر يبنيهَـا ويهدمهـــا
مســـوم فوقـه الرايـات والقتـــر
حتى يكـون لهم بالطف ملحمـــة
بالثـوية لـــم ينبض بهـــا وتـــر
وتســـــتبين لأقـــوام ضـــلالتهم
ويســتقيم الذى فى خـــده صـعر
ثم اســـتقل بأثقال العــراق وقـد
كانت له نقمـة فيهـــا ومدخـــر
فى نبعة من قريش يعصبون بهـــا
ما إن يوازى بأعلى نبتها الشـجر
تعلـو الهضاب وحلوا فى أرومتها
أهل الرياء وأهل الفخر إن فخروا
حشد على الحق ، عيافو الخنا انف
إذا ألمت بهـم مكروهة صبروا
وإن تدجـت على الآفاق مظلمـــة
كان لهم مخرج منها ومعتصر
أعطاهــم الله جـــدا ينصرون بـــه
لا جد إلا صغير بعد محتقر (٩)

---

(٩) مســوم : معلــم . القتر : الغبار . الطف : موضع بالقــارب من الكوفة وكذلك الثوية . لم ينبض بهــا وتر : لم يرم بهــا نبل . الصعر : ميل الخد كبرا (وتيها) . نبعة : النبع : أجود الشجر . يعصبون بها : يلتزمونها . الرياء : الفضل والمنة .
حشـد : متأهبون . عيافون : تاركون . الخنا : الفحش . الأنف : المترفعون عن العار .
تدجت : أظلمت . معتصر : ملجـأ .
الجـد : الحظ .

شمس العــداوة حتى يســتقاد لهم
واعظم الناس أحــلاما إذا قدروا (١١)

لا يستقل ذووا الأضغان حربهـــم
ولا يبــين فى عيدانهـــم خـــور

فهو يمدح عبد الملك بإمامته للمســلمين ، وأنه من الصلاح بحيث يستقى به المطــر ، ثم اســتعار من النابغــة الذبيانى صـورة يمدح بها النعمان بن المنذر ويقــول فيها :(١٢)

وما الفرات إذا هب الريــاح لــه
تمــرى أواذيــه العبــرين بالزبــد

يمـــده كــل واد متــرع لجـــب
فيــه ركام من الينبوت والخضـد

يظــل من خــوفه الملاح معتصما
بالخيرزانة بعـد الأيــن والنجــد

يوما بأجــود منــه سـيب نافلــة
ولا يحــول عطاء اليوم دون غــد

فالنابغة يصور الفرات متلاطمة أمواجه ، مرتطمــة بالشاطئين ،

---

(١١) شمس : جمع شموس وهو الرجل العسر فى عداوته • يستقاد لهم : يخضع الناس لقيادتهم •

(١٢) راجع المعلقات العشر ص ١٦٩ تمرى : تحلب • الأوازى : الأمواج العبرين : الشاطئين • الينبــوت والخضــد : ضربان من النبــات الخيرزانة : لجام السفينة • الأين : التعب والإعياء • النجــد : العرق الذى يتأتى من الإعياء •

تقـذفهما بالزبد ، تمـده الأدوية الكثيرة مكتسحة بطوفانها الطـاغى ما يعترض طريقهـا من نبات وشجر ، ويحرص على بيان الجو الممتلىء بالرعب والفزع ممثلا فى هذا الملاح الذى يمسك بالخيرزانة التى اتخذها مجدافا وذلك بعـد صراع مرير مع الأمواج المتلاطمة ..

والأخطل يصور الفرات متلاطمة أمواجه ، والأشجار على حافتيه ، ورياح الصيف قد زادت من هياج الأمواج وهديرها ، ثم التفت إلى مياه الفرات منحدرة من جبال الروم تتدفق تدفقا ..

إن صـورة النابغة كانت ماثلة أمام الأخطل وهو ينشىء قصـيدته هذه وقد حاول أن يجدد لكنه لم يخرج عن الإطار الذى رسمه الجاهليون فكان التجديد بقـدر .

ونمضى مع الأخطل فى هـذه الأبيات فنجـده يمـدح عبد الملك ويصـفه بالشـجاعة وشـدة البأس ، ثم يمدح أسرة الخليفـة ـ مثلمـا مدح الجاهليون ـ فيذكر أرومة نسـبه ، وشرف قومه ، وأنهم منزهون عن قول الفحش ، متحـدون مجتمعون على الحـق ، صـابرون عنـد المكاره ، أصـحاب رأى سـديد ينير المشاكل المظلمة ، وهم مع ذلك كله قد أوتوا حظا عظيما لكنهم لا يبطرون ولا يطغون ، عداوتهم شديدة ، يعفون عند المقدرة شجعان بواسـل .. الخ ما جاء فى القصيدة .

ومن الشعراء الأمويين المداحين (من كان الشعر يجرى على لسانه رقيقا رقيقا ، وكأنه سـبحات المـاء تجـرى فى الجـدول الرقراق لينا وعـذوبة ، فهـذا (عدى بن الرقاع العاملى) الشاعر الشـامى الـذى انقطع للوليد بن عبد الملك ، يقول فيه ما يقوله الشيعة فى أئمتهم(١٣) :

(١٣) ديوانه ٨٢ ـ ٨٣ ط دار الكتب العلميـة ، وانظـر / الأدب فى موكب الحضارة الإسـلامية ص ١١٨

صلى الذى الصلوات الطيبات لـه
والمؤمنون إذا ما جمعـوا الجمعـا
على الذى سبق الأقـوام ضاحية
بالأجر والحمـد حتى صاحباه معا
لا يبرح المرء يستقرى مضـاجعه
حتى يقيـم باعلاهـن مضطجعـا
هـو الـذى جمـع الرحمن أمتـه
على يديـه وكانـوا قبلـه شيعا
عذنا بذى العرش أن نحيا ونفقده
وأن نكـون لـراع بعـده تبعـا
إن الوليـد أميـر المؤمنـين لـه
مـلك عليـه أعـان الله فارتفعـا
لا يمنـع الناس ما أعطى الذين هـم
لـه عباد ولا يعطـون مـا منعـا

إنه شـعر رائق ، لكن المبالغـة فيه واضـحة ، والغلـو كبيـر ، فأنت حين تقـرأ :

صـلى الـذى ....

.... البيـــت

والذى يليه تشعر أنه يتحـدث عن الرسـول - ﷺ - إلا أنك تفاجأ بالحديث عن (الوليد بن عبد الملك) ، والشاعر يشـتد فى غلوه ويمعن فيه ، فلا يرضى عن (الوليد) بديلا فى الخلافـة ، ومن هنا غضـب (سليمان بن عبد الملك) واسـتدعى (عديا) ليؤنبه على قوله ، فمـا كان من الشـاعر إلا أن غير البيت هكـذا :

معـــاذ ربى أن نبقى ونفقـــدهم
وأن نكـــون لـــراع بعـــدهم تبعـــا

. . . .

وهكذا كان المدح فى العصر الأموى يدور فى الإطار المرسوم منـذ العصر الجـاهلى .

إلا أن التجـديد كان فى تـلك المعانى المسـتمدة من الإسـلام ، حين يصـف الشـعراء ممدوحيهم بالهداية والتقـوى والورع ، وأن عناية الله أرسـلتهم للم الشـمل وجمع الكلمة وتوحيـد الصف .

يقول (الفرزدق) مادحا (سليمان بن عبد الملك) :

به كشـــف الله البـــلاء واشرقت
لـــه الأرض والآفاق نحس هـــلالها

ويقول :

وجـــدنا بنى مروان اوتـــاد ديننـــا
كما الأرض أوتاد عليهـــا جبالهـــا

فانتم لهـــذا الـــدين كالقبلـــة التى
بهـــا إن يضل الناس يهدى ضلالها

ويقول (جرير) مادحا (معاوية بن هشام) :

الله دمـــر (عبـــادا) وشـــيعته
عـــادات ربك فى امثـــال (عباد)

قد كان قال امير المؤمنين لهـــم
ما يعلـــم الله من صـــدق وإجهـــاد

من يهـــده الله يهتـــد لا مضـــل له
ومن اضـــل فما يهديه من هـــادى

لقــه تبــين إذ غبــت أمــــورهم

قــوم الجحافى أمــرا غبــه بادى

لاقوا بعــوث أمير المؤمنين لهـــم

كالــريح إذ بعثت نحسا على عاد

فيهـــم ملائكــة الرحمن ما لهــم

ســـوى التوكل والتسبيح من زاد

أنصـــار حــق على بلق مســومة

أمــداد ربــك كانوا خيــر أمــــداد

وواضح فى هذه الأبيات اقتباس الشاعر من القرآن الكريم ، وفيها لا يمدح معاوية بقوة فى شخصه ، وإنما بأنه قوى بهداية الله وتسديده خطاه ، وأن الله يقهر أعداءه كما قهر أعداء الأنبياء ، وأنه مؤيد كتأييد الرســول بملائكة الله فى غزوة بدر ..

وكان أكثر المديح فى هــذا العصر مبالغــا فيــه ، وأحيانا يوصف الممدوح بما ليس فيه ، مثل ما فعل (جرير) مع (يزيد بن عبد الملك) الذى عرف عنه مجونه ولهوه وعبثه وفســقه وظلمه .. ومع ذلك يقــول فيــه (جرير) :

هذى البرية ترضى ما رضيت لهــا

إن سرت ساروا ،وإن قلت اربعوا وقفوا

هو الخليفة فارضوا ما قضى لكــم

بالحــق يصــدع ما فى قوله جنف

يقضى القضاء الذى يشفى النفاق به

فاســتبشر الناس بالحق إذ عرفــوا

انت المبـارك والميمـون سـيرتا

لولا تقـوم درء الناس لاختلفـوا

أرايت كيف جعله فى مصاف العادلين الصادعين بالحق !! .

حقا (والشـعراء يتبعهـم الغـاروون . ألم تر أنهـم فى كل واد يهيمون . وأنهم يقـولون ما لا يفعلون) (١٤) .

ومن هنا : اختلفت صـورة المـدح الأموى عن صورة المدح الجاهلى. فالشـاعر الجاهلى ـ غالبا ـ لم يكن يمدح الرجل إلا بما هو فيـه وإذا بالغ وصل حدا مقبولا ، بخلاف المدح الأموى ..

* * *

٢ ـ الغـزل

وهو التحدث إلى النسـاء أو عنهن .. ويمكن أن يفرق بينه وبين التشبيب ، فالأول يصـدر عن إعجاب أو حب ، والثانى لا يعبر عن حب وإعجاب حقيقيين ، وإنما يكـون هدفه الأول النيـل من كـرامة أهـل المشبب بها . ويمكننا أن نقسم الغزل الأموى إلى أقسام :

(أ) الغزل الكيـدى (التشبيب) .

ولهذا التشبيب نظير فى العصر الجاهلى وصدر الإسلام ، وبطلـه فى الجاهلية (قيس بن الخطيم) الذى شبب بعمرة بنت رواحة .

أما فى العصر الأموى فأبرز شـعراء هـذا النـوع (العرجى) ، و (عبد الرحمن بن حسان) ، و (ابن قيس الرقيات) وغيرهم فقد شبب (العرجى) بأم الوالى (محمد بن هشام) ، وبزوجته .

---

(١٤) سـورة الشعراء الآيات (٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦) .

يقول فى (جيـداء) أم الوالى(١٥) :

عوجى علينـــا ربـــة الهـــودج

إنـــكِ إلا تفعـــلى تحـــرجى

نلبث حـــولا كامـــلا كلـــه

ما نلتقـــى إلا علـــى منهـــج

فى الحج إن حجـت وماذا منى

وأهلــه إن هـــى لـــم تحجـــج

ذكر الأصفهانى : (أن عطاء بن أبى رباح) أنشـد قول العرجى هذا فقال : الخير والله كله بمنى وأهله حجت أو لم تحج .

وقال (العرجى) فى (جبرة المخزومية) زوجة الوالى محمد ابن هشـام(١٦) :

عوجى علـى فسلمى (جبـر)

فيـــم الصـــدود وأنتـــم ســـفر

مـا نلتقـــى إلا ثـــلاث منـــى

حتـــى يفـــرق بيننـــا النفـــر

الحـول بعـــد الحـــول يتبعـــه

ما الدهـــر إلا الحلـــول والشـــهر

وشبب (عبد الرحمن بن حسان) (برملة بنت معاوية) ويبـدو انه كان ينتقم بهـذا التشبيب من معاوية الذى أمر (مروان بن الحكم) والى المدينـة أن يضرب (عبد الرحمن بن حســان) و (عبد الرحمن

---

(١٥) الأغانى ٤٠٧/١

(١٦) نفســه ٤٠٨/١

ابن الحكم) مائة سوط بسبب تهاجيهما ، فنفذ فى (ابن حسان) وترك أخاه ومما قاله ابن حسان :

رمل هل تذكرين يوم غزال
إذ قطعنا مسيرنا بالتمنى

إذ تقولين عمرك الله هل شئ
وإن جل سوف يسليك عنى

(ب) الغزل التقليدى .

واعنى به ما يفتتح به الشعراء قصائدهم ، وهو قديم من الجاهلية وقد سار الشعراء الامويون على نهج الجاهلين ..

فهذا (عدى بن الرقاع العاملى) يقول(١٧) :

عرف الديار توهما فاعتادها
من بعد ما شمل البلى أبلادها(١٨)

إلا رواسى كلهن قد اصطلى
حمراء اشعل اهلها إيقادها(١٩)

كانت رواحل للقدور فعريت
منهن واستلب الزمان رمادها

إلى أن يقول :

كالظبية البكر الفريدة ترتعى
من ارضها قفراتها وعهادها(٢٠)

---

(١٧) ديوانه ص ٨٢ وما بعدها ـ ط العراق .

(١٨) اعتادها : أتاها مرة بعد أخرى . الأبلال : الآثار .

(١٩) الرواسى : الأثافى . حمراء : النار .

(٢٠) البكر : التى ولدت بطنا ، وبكرها : ولدها . عهادها : جمع عهدة وهو أول ما يقع من المطر .

خضبت لهــا عقــد البراق جبينها
من عركهــا علجانها وعرادها(٢١)

كالزين فى وجه العروس تبـذلت
بعــد الحياء فلاعبت أرآدها(٢٢)

تزجى اغــن كــأن إبــرة روقـــه
قلم أصاب من الدواة مدادها(٢٣)

وهــذا الغزل فى العصر الأموى كان نصــيبه من العواطف الحارة محدودا ، لأنه ليس صــدى لتجارب وانفعالات مصاحبة لإنشــاد الشعر بل رواســب لمغامرات قديمة سحب عليهــا الزمن ذيول النســيان ٠٠٠ وليس هناك اســتثناء صارخ لهذه الظاهرة إلا ما نراه عند جرير ، وذلك ليقظة حسه وتوتر أعصابه بسبب منازعاته الكثيرة مع الشعراء ٠٠٠(٢٤)

(ج) الغــزل الحسى ٠

فى لمحتنا التى قدمناها عن الحيــاة الاجتماعية فى هــذا العصر الذى ندرســه وجدنا أن الترف قد جاءهم (وغلب عليهم بما حصل لهم

---

(٢١) خضبت : أى أثرت فى جبينها ٠ العقد : جمع عقدة وهو من الشجر ما ثبت أصله ٠ البراق : روابى منها رمل وحجارة ٠ العلجــان : شجر أخضر مظلــم الخضرة ليس فيــه ورق ٠ العرار : الشــوك الذى لم يخضــد ٠

(٢٢) الزين : نقط فى وجه العروس من زعفران ٠ الأرآد : الأتراب ، واحدها : ريد ٠

(٢٣) تزجى : تدفع ٠ أغن : صغير ضعيف ٠ إبرة روقة : حدة القرن٠

(٢٤) تاريخ الشعر العربى / محمد عبد العزيز الكفــراوى ١٩٨/١ ، جرير ونقائضه مع شعراء عصره ١٠٩ للكفراوى ٠

من غنائم الأمم ، وصاروا إلى نضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ)(٢٥) • صحيح أن هذا لم يكن عاما وإنما كان مقصورا على طبقة دون أخرى ـ كما أسلفنا ـ إلا أنه أثمر طبقة مترفة من الشباب لا عمل لها ، ولا تجد ما تنفق فيه وقتها سوى اللهو والغناء والمجون • وقد ظهر ذلك واضحا فى مكة والمدينة والطائف وساعدهم على ذلك كثرة الموالى الذين اختلطوا بالمجتمع العربى ، إذ افترق المغنون من الفرس والروم فوقعوا إلى الحجاز ، وصاروا موالى للعرب ، وغنوا جميعا بالعيدان والطنابر والمعازف والمزامير ••• فى هذه البيئة ظهر المغنون •

ففى المدينة ظهر نشيط الفارسى ، وطويس ، وسائب خاسر وغيرهم(٢٦) وصدق القائل(٢٧) :

إن الشباب والفراغ والجده مفسدة للمرء أى مفسدة

شغل الشباب أوقاتهم بالغناء والموسيقى ، وبالحب واللهو والمغامرات العاطفية ، ومن كان منهم شاعرا صور ذلك بشعره •

ويعد إمام هذا اللون فى العصر الأموى (عمر بن أبى ربيعة) ويليه (العرجى) حفيد عثمان بن عفان ، والأحوص ، ووضاح اليمن•

وكان شعراء هذا اللون يسلكون المسلك القصصى الذين تكون فى قالبه مغامراتهم(**) •

---

(٢٥) مقدمة كتاب الأغانى ١/١٢ ، ١٣ •

(٢٦) مقدمة الأغانى ١/١٣ •

(٢٧) البيت لأبى العتاهية •

(**) راجع للاستزادة : العصر الإسلامى ، والتطور والتجديد فى الشعر الأموى للدكتور شوقى ضيف •

ولعل أبرز تلك القصص الشعرية ما قاله (عمر بن أبى ربيعة) فى قصيدته الرائية التى منها(٢٨) :

أمــن آل نعــم أنت غــــاد فمبكـــر
غــــداة غــد أم رائــح فمهجـــــــر

بحاجــة نفس لــم تقــل فى جوابها
فتبلــغ عـــذرًا والمقــالة تعـــــذر

تهيــم إلى نعم فــلا الشــمل جامــع
ولا الحبــل موصول ولا القلب مقصر

ولا قــرب نعــم إن دنت لــك نافــع
ولانايهــا يســلى ولا أنت تصـــــبر

وفيهـــا :

وترنـــو بعينيهــا إلى كمــا رنـــــا
إلى ظبيــة وســط الخميلة جــؤذر

فلمــا تقضى الليـــــل إلا أقلـــــه
وكادت تـــوآلى نجمــــه تتغـــــور

أشــارت بأن الحى قد حــان منهــم
هبــوب ولكن موعــد منــك عـــزور

فقلــت أباديهــم فإمـــا افوتهـــم
وإمــا ينــال السـيف ثــارا فيثـــأر

فقالت : أتحقيقــا لمــا قــال كاشــح
علينــا وتصــديقا لمــا كان يؤثــــر

---

(٢٨) ديوانه ص ٦٤ - ٦٧ ، ط هيئة الكتاب .

إلخ ...

وهى أشهر ماله فى هذا المجال . وفى هذا اللون يبرز الحوار المفتوح - ولا سيما عند عمر بن أبى ربيعة - الذى لا ينضب معينه عنده ولا تجف قطراته فى نفسه .

وهذا اللون يعد جديدا فى هذا العصر ، إذ يصور عواطف المرأة العربية التى تحضرت فى هذا العصر ، وغير معقول أن توصف المرأة العربية المتحضرة فى شعر العصر الجاهلى لأنه عصر بداوة .

وكما أنه مما يميز غزل (عمر بن أبى ربيعة) أنه استطاع أن يكتب فى هذا الغزل ديوانا ضخما لأول مرة .

(د) الغـزل العـذرى .

وموطنه الأول البادية لما فيها من تقاليد وأعراف أخذ أهلها بها ، فالاتصال أو الاختلاط أمر عسير. وينسب إلى قبيلة (عذرة) إحدى قبائل قضاعة لأن شعراءها أكثروا من التغنى به ونظمه .

وفى هذا اللون من الغزل (تقرأ لوعة المحبين ، وظمأهم إلى رؤية معشوقاتهم ظمأ لا يقف عند حد ، ظمأ نحس فيه ضربا من التصوف فالشاعر لاينى يتغنى بمعشوقته ، متذللا متضرعا متوسلا ، فهى ملاكه السماوى ...)(٢٩) .

وأهم ما يميز هذا النوع من الغزل :

* أن المحبين يحبون حبا حقيقيا ويقصرون حبهم على امرأة واحدة ولا ينتقلون بين النساء لمجرد الجمال كالنحلة بين الأزهار .

---

(٢٩) العصر الإسلامى د/شوقى ضيف ٣٥٩ .

* ويسيطر الحرمان على المحبين فى هذا النوع ، فحديثهم ينصب على هذا الحرمان الذى يلاقونه وما يجره من آلام وأحزان ٠

* العواطف فيه أعمق ، والانفعال أعنف ٠

* يذكرون من أهم صفات هؤلاء المحبين (العفة) ، لكن العفة لا تتأتى إلا ممن هيئت له أسباب الاتصال بمحبوبته ، لكن هؤلاء حيل بينهم وبين ما يشتهون ومن هذا كانت شكواهم من الحرمان(٣٠) ٠

* * *

(٣٠) راجع : تاريخ الشعر العربى / الكفراوى ٢٢٧/١ ، ٢٢٨ ٠

اشهر شعراء الغزل العذرى :

١ ـ جميل بن معمر : من قبيلة عذرة ، ومحبوبته بثينة ، وتبدأ قصته معها بأنه كان يرعى إبلا له فى واد يقال له (بغيض) ، فمرت صاحبته ببعضها فهاجته ، فسبها جميل وسبته ، وفى أثناء الجذب والدفع ملأ كل منهما عينه من صاحبه ، وبدأ يفكر فيه • وهو يشير إلى تلك البداية بقوله(١) :

وأول ما قاد المودة بيننا
بوادى بغيض يا بثين سباب
وقلت لها قولا فجاءت بمثله
لكل كلام يا بثين جواب

وحيل بينهما ، وحرم منها ، فظل يهذى باسمها ، إذ تزوجت من غيره لكنه لا يسلوها • يقول(٢) :

وإنى لأرضى من بثينة بالذى
لو ابصره الواشى لقرت بلابله
بلا ، وبان لا أستطيع ، وبالمنى
وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى
أواخره لا نلتقى وأوائله

ويمتاز شعر جميل بـ :

---

(٢) ديوانه ص ٢٤ تحقيق د/حسين نصار •
(٢) نفسه ١٦٩ •

- عمق العاطفة ٠
- حرارة الانفعال ٠
- الصدق ٠
- غلبة الهوى ٠
- وشقاء الحرمان ٠

وهذا فى مثل قوله (٣) :

وانت التى إن شئت كدرت عيشتى
وإن شئت - بعد الله - أنعمت باليا

وأنت التى ما من صديق ولا عدى
يرى نضوما ابقيت إلا رثى ليا

فإنك لو تجلين نحو تهامة
أو الركن من حوران أصبحت جاليا

وقد خفت أن يفترنى الموت بغتة
وفى النفس حاجات إليك كما هيا

وإنى لتثنينى الحفيظة كلما
لقيتك يوما ان ابثك ما بيا

الم تعلمى يا عذبة الماء اننى
اظل إذا لم أسق ماءك صاديا

وقد بلغ به أمر حبها أن قال (٥) :

---

(٣) ديوانه ص ٢٢٢ ٠
(٤) نفسه ٢٠٣ ٠

اصلى فابكى فى الصلاة لذكرها
لى الويل مما يكتب الملكان

ويرى جميل – مثلما يرى العذريون عموما – أن الحب قدر لا مفر منه فهو يولد مع الإنسان فيقول جميل(٥) :

علقت الهوى منها وليدا فلم يزل
إلى اليوم ينمى حبها ويزيد

٢ – قيس بن ذريح :

هو قيس بن ذريح : من كنانة ، اشتهر بحبه (لبنى بنت الحباب الكعبية) وكانت امرأة مديدة القامة ، شهلاء ، حلوة المنظر والكلام فلما رآها عشقها ، وشكا إليها غرامه ، فشكت إليه مثله ، فطلب إلى أبيه أن يخطبها فأبى لأنه كان غنيا فأراد له إحدى بنات عمه ٠٠ إلى أن توسط (الحسين بن على) فزوجوه ٠٠

وعاش الزوجان مدة فى سعادة حتى دخلت أم قيس بينهما ، وسعت إلى تطليقها ، فتفرقا ، وبكى (قيس) لهذا الفراق الذى خلف أسى ولوعة وقضى بقية حياته هائما على وجهه ، يهذى باسمها ٠
يقول قيس حين رأى هودج لبنى وعلم أنها مسافرة بعد ليلة :

وإنى لمفن دمع عينى بالبكا
حذار الذى قد كان أو هو كائن

وقالوا غدا أو بعد ذاك بليلة
فراق حبيب لم يبن وهو بائن

---

(٥) نفسه ٦٥ ٠

وما كنـت أخشى أن تكـون منيـتى

بكفيـك إلا أن مـا حـان حائـن

ولما غاب هودجها أكب على أثر خف بعيرها يقبله ، ويرجع يقبل موقع مجلسها وأثر قدميها فلاموه على ذلك فقال :

ومـا أحببـت أرضـكم ولكـن

أقبـل إثـر مـن وطىء الترابـا

لقـد لاقيـت مـن كلـفى بلبـنى

بـلاء مـا أسـيغ بـه الشـرابا

إذا نـادى المنـادى باسـم لبـنى

عييت فمـا أطيـق لـه جوابـا

وتحولت حياته بؤسا وشقاء دائمين ، وصار كالمريض لا يعرف للماء طعما ولا للشراب مذاقا ، وأخذ يهوى النوم متمنيا رؤيـة حبيبته فى المنـام :

وإنى لأهـوى النـوم فى غـير حينه

لعـل لقـاء فى المنـام يكـون

تحـدثنى الأحـلام انى أراكـم

فيا ليـت أحـلام المنـام يقـين

ويعلل شدة هيامه بها ، فيذكـر أن روحـه تعلقت بروحها قبل خلقهما فكيف يسلوها ؟

تعلـق روحـى روحهـا قبـل خلقنا

ومن بعـد ما كنـا نطافا وفى المهـد

فزاد كمـا زدنـا فاصـبح ناميـا

وليس إذا متنـا بمنصـرم العهـد

ولكنـه بـاق عـلى كـل حـــادث

وزائرنا فى ظلمـة القـبر واللحـــد

ويقال : إن نفرا من قريش كلمـوا زوج لبنى فى شـأن قيس ، فطلقها وعادت لبنى إلى قـرة عينهـا حتى ماتت ، فاكب على قبرها يبكيها ، ولم يزل عليلا بها حتى دفن بجوارها .

٣ - كثـير عـزة :

هو كثير بن عبد الرحمن : من خزاعـة ، اشتهر بحبه عزة بنت جميل بن وقاص من ضمرة ، كانت من أجمل النساء وآدبهن وأعقلهن. ومن شعره فيها قصيدته التى مطلعها :

خليـلى هـذا ربـع عـزة فاعقـــلا

قلوصيكما ثم ابكيـا حيث حلـــت

وقوله فيها لما اخرجت إلى مصر :

وقال خليـلى مالهـــا إذ لقيتهـــا

غـداة السـنا فيهـا عليـك وجـــوم

فقلت لـه إن المـــودة بيننـــــا

عـلى غـير فحش والصـفاء قـــديم

وإنى وإن اعرضــت عنهـا تجلـــدا

عـلى العهـد فيمـا بيننـا لمقيـــم

وإن زمانـا فـرق الدهـر بيننـــا

وبينكــم فى صـــرفه لمشـــــوم

٤ - مجنون ليلى :

وأما مجنون ليلى (قيس بن الملـوح) ، فقد شكك بعضهم فى

وجوده أصلا .. غير أنه عرف الحياة وعرفته ، إلا أنهم تزيدوا فى قصصه وأخباره،يقول الأصفهانى : « إن شابا من بنى أمية كان يحب ابنة عمة ، وكان يكره أن يظهر ما بينه وبينها فوضع حديث المجنون ».

معنى ذلك أن المحبين من الشعراء كان بعضهم يخفى شخصيته وراء المجنون ، ورغم أن شعره قليل إلا أنه حظى من الشهرة ما لم ينله المكثرون من الشعراء .

***

٣ ـ شعر الخصومات :

ذكرنا فى لمحتنا عن الحياة السياسية والاجتماعية فى العصر الأموى أن العصبية قد عادت أقوى مما كانت عليه فى الجاهلية ، ثم « ما إن أخذت الفتنة الكبرى مكانها المقيت فى دنيا الحياة الاسلامية إثر مقتل ذى النورين الخليفة (عثمان بن عفان) حتى أخذ دبيب الخلاف سيره فى صفوف المسلمين يصدع الشمل،ويفتت الصف ، وكانت فرصة كريهة ظهرت فى أثرها الانقسامات لم تلبث أن اتخذت شكل الأحزاب فى خلافة على ونزاعه مع معاوية »(٦) .

ووجدنا أنفسنا بإزاء أربعة أحزاب متنافرة هى : الحزب الأموى، الشيعة ، الخوارج ، الزبيريون .

ووجد الشعر فرصته للازدهار فى هذا الجو ، إذ كان لكل حزب أنصاره ومؤيدوه ، هذا بالإضافة إلى الصراع القبلى والفردى بين الشعراء ..

---

(٦) الأدب فى موكب الحضارة الإسلامية ص ٧٣ .

نتج عن ذلك كله أنواع من الخصومات يمكن أن نلمها فيما يلى :

(أ) الخصومات الحزبية :

فقد نشبت المعارك بين الشعراء حسب اتجاهاتهم الحزبية ، وكان الشعر الوسيلة الإعلامية لكل حزب .

١ ـ شعر الحزب الأموى وشعراؤه :

شعراء هذا الحزب كثير ، وهذا أمر طبيعى لأن الجاه والسلطان بأيديهم ، وقد سلكوا مسلك الترغيب والترهيب ، وجاء الشعراء من كل صوب وحدب يتنافسون فى سبيل الحصول على أعظم الهبات وأجـزل العطايا .

ولم يكن شعراء هذا الحزب يسكنون عاصمة الخلافة ، بل كانـوا متفرقين فى الأمصار غير شاعر واحد وصف بأنه (شاعر أهل الشـام) وهو (عدى بن الرقاع العاملى) الذى انقطع للوليد بن عبد الملك .

ومن شـعراء الأمويين الثالوث الخطـير : (جـرير والفـرزدق والأخطل) ومن شـعرائهم أيضا : (مسـكين الدارمى) الذى رأى فيه معاوية معينا له على سياسته ، وكان قد أوعز إليه بفكره ولاية العهـد لابنه (يزيد) فقال شعرا فى ذلك .. وقويت العلاقة بين مسكين وزياد ابن أبيه فأحسن إليه وأكرمه .

ومنهم : (أبو العباس الأعمى) الذى يقول عنه الأصفهانى(٧) : (وكان من شعراء بنى أمية المعدودين ، المقدمين فى مدحهم ، والتشيع لهم ، وانصباب الهوى إليهم) .

---

(٧) الأغـانى ١٥/٥٩ .

ومن شعره فيهم قوله (٨) :

لیت شعری افـاح رائحـة المسـك
وما إن إخـال بالخيف إنسـى

حين غابت بنـو أميـة عنـه
والبهاليـل مـن بنى عبـد شـمس

خطبـاء علـى المنـابر فرسـا
ن عليهـا وقالـة غـير خـرس

لا يعانـون صـامتين وإن قـا
لوا اصـابوا ولـم يقولـوا بلبـس

بحلوم إذا الحـلوم تقضـت
ووجـوه مثـل الدنـانير ملـس

والعجيب أن الشاعر قال هذا الشعر وهـو بالحجاز فى قبضة عبد الله بن الزبير ، وقد أراد أن يبطش به لولا أن ناسا كلموا ابن الزبير فاطلقه ، غير أن الشاعر لم يرجع عن هجوه لآل الزبير .

ومن شعرائهم : (نابغة بنى شيبان) ، الذى استن سنة (مسكين الدارمى) ، وذلك حين أراد (عبد الملك) أن يخلع أخاه ويأخذ البيعة لابنه (الوليد) فانتهز (النابغة الشيبانى) فرصة مدح عبد الملك - حين قضى على الزبيريين وضمن شعره اقتراحا يجعل ولده الوليد وارثا لملكه قائلا (٩) :

---

(٨) تاريخ الشعر العربى للكفراوى ٩١/١ نقلا عن نكت الهيمان ١٥٤ .
(٩) الأغانى ١٠٧/٧ .

ازحت عنا آل الزبير ولو
كانوا هم المالكين ما صلحوا

آل ابى العاص آل ماثرة
غر عناق بالخير قد نفحوا

خير قريش وهم افاضلها
فى الجد جد وإن هم مزحوا

ارحبها اذرعا ، واصبرها
انتم إذا القوم الوغى كلحوا (١٠)

اما قريش فانت وارثها
تكف من صعبهم إذا طمحوا

حفظت ما ضيعوا وزندهم
أوريت إذ اصلدوا وقد قدحوا

آليت جهدا ـ وصادق قسمى ـ
برب عبد تجنه الكرح (١١)

يظل يتلو الانجيل يدرسه
من خشية الله قلبه طفح

لابنك أولى بملك والده
ونجم من قد عصاك مطرح

وكذلك فعل الشاعر الكبير (جرير) مع (سليمان بن عبد الملك) حين أراد أخذ البيعة لابنه (أيوب) فيقول (١٢) :

---

(١٠) كلحوا : تكشروا فى عبوس ٠
(١١) الكرح : بيوت صغار بأرض الكوفة تسكنها الرهبان ٠
(١٢) ديوان جرير ص ٣٤ ٠

إن الإمـام الـذى تـرجى نوافلـه
بعـد الإمـام ولى العهـد (أيوب)

الله اعطاكـم مـن علمـه بكـم
حكمـا ومـا بعـد حكـم الله تعقيب

انت الخليفـة للرحمـن يعرفـه
أهـل الزبور وفى التـوراة مكتـوب

والشعراء فى خدمة الحزب الأموى يسبغون على الخلفاء مؤهلات الخلافة ، وأنها حق سماوى لهم ، وهم سيوف الله المسلولة لحماية الدين ونصرته وأنهم ينهجون فى حكمهم نهـج النّبى ﷺ ونهج سـابقيه من الرسل ، ولذا فهم مؤيدون بنصر الله(١٣) ٠

يقول الفرزدق فى عبد الملك بن مروان(١٤) :

فالأرض للـه ولاهـا خليفتـه
وصـاحب اللـه فيها غـير مغلـوب

بعد الفسـاد الـذى قـد كان قـام به
كـذاب مكـة مـن مكـر وتخـريب

رامـوا الخلافـة فى غـدر فاخطاهم
منهـا صـدور وفـازوا بالعراقيـب

والناس فى فتنـة عميـاء قـد تركت
اشـرافهم بـين مقتـول ومحـروب

دعوا ليسـتخلف الرحمـن خيرهـم
واللـه يسـمع دعـوى كل مكـروب

---

(١٣) راجع : أدب السياسة ـ الحوفى ١٤٦ ٠
(١٤) ديوانه ٢٥/١ ٠

تراث عثمـان كانـوا الأوليـاء بــه
ســربال ملك عليهـم غـير مسـلوب

وهم - فى سبيل إرضاء الخلفاء ونيل الحظوة عندهم - يحملون على خصومهم حملة شعواء ، فيكفرونهم ويرمونهم بالظلم والطغيـان والفسق ... إلخ .

فهذا (كعب بن جعيل التغلبى) يصور موقف أهل الشام والعراق قـائلا(١٥) :

أرى الشـام تكـره مـلك العــــراق
وأهــل العــراق لهــم كارهينــــــا

وكلا لصـــاحبه مبغضــــــــــا
يــرى كل مــا كان مــن ذاك دينـــا

إذا مــا رمونـــــا رميناهـــــم
ودناهـــم مثـل مــا يقرضـــونا

وقالـــوا : (على) إمـام لنـــــا
فقلنـــا : رضينا (ابن هند) رضـينا

وقالـــوا : نــرى أن تدينـــوا لـــه
فقلنـــا لهـم : لا نــرى أن ندينـــا

ومن دون ذلك خــرط القتــــــاد
وضـــرب وطعــن يقــر العيونـــا

وكل يســـــر بمــا عنــــــده
يــرى غث مــا في يديـــه ثمينـــا

---

(١٥) تهذيب الكامل ١/ ٤٠ .

ومــا فى (عــلى) لمســـــتعتب

مقــال ســـوى ضـــمه المحدثينـــا

وإيثــاره اليــوم أهــل الذنـــــوب

ورفــع القصـــاص عــن القاتلينـــا

إذا ســيل عنــه زوى وجهـــــــــه

وغــمى الجـــواب عــن الســائلينـا

فليـــس بــراض ولا ســــــاخط

ولا فى النهــاة ولا الآمرينــــــــا

ولا هــوســــــاء ولا ســــــــره

ولابـــد مــن بعــض ذا أن يكونـــا

وطلب (يزيد بن معاوية) إلى (الأخطل) أن يهجو الأنصــار فقــال(١٦) :

لعــن الإلــه من اليهــود عصـــابة

بالجـــزع بــين صليصــل وصـــرار

قوم إذا هــدر العصـــير رايتهـــم

حمــرا عيونهــم مــن المســـــطار

خلــوا المــكارم لسـتم مــن أهلهـــا

وخـــذوا مســاحيكم بنى النجــار

إن الفــوارس يعلمـــون ظهـــوركم

أولاد كــل مقبـــــح أكـــــــار

---

(١٦) طبقات الشعراء ٣٩٧ ، صلصيل وصرار : موضعان قرب المدينـة والمسكار : الخمر الصارعة لشاربها . المساحى : جمع مسحاة وهى الفأس ونحوها . أكار : حراث .

ذهبت قريش بالمكارم كلها
واللؤم تحت عمائم الأنصار

ويحكم (عدى بن الرقاع) على (مصعب بن الزبير) بالنفاق فيقول(١٧) :

لعمرى لقد أصحرت خيلنا
بأكناف دجلة للمصعب
يهزون كل طويل القنا
معتدل النصل والثعلب
إذا ما منافق أهل العرا
ق عوتب ثمت لم يعتب
دلفنا إليه بذى تدرأ
قليل التفقد للغيب

ويمكن أن نوجز أهم ملامح الشعر فى رحاب الحزب الأموى فيما يلى :

- من حيث موضوعات الشعر : فقد غلب الجانب السياسى على ما عداه وفى خلال ذلك أخذ الشعراء يسحبون على الحكام هالة من الدين ، فوصفوهم بالهدى والصلاح والعفاف ، وأن الله أيدهم بنصر من عنده ، وفى المقابل يصفون خصمهم بالكفر والفسق والظلم والعصيان ... إلخ .

---

(١٧) ديوانه ، ط دار الكتب العلمية ص ٥٩ ، ٦٠ . أصحرت : برزت فى الصحراء ، أكناف دجلة : نواحيه . دلفنا : تقدمنا . ذو تدرأ : أى ذو قوة ومنعة .

ـ غلبت النفعية على شـعرائهم ، فـكان معظمهم طلاب مال ، متطلعين إلى الشهرة ، وقلما تجـد شـاعرًا يمكن أن يوصف بالوفاء الخالص لبنى أمية ، ومن هؤلاء (أبو العباس الأعمى) و (أبو صخر الهذلى) ٠

ـ اتسـم شعرهم بالمبالغة فى المـدح ، فجاءت مدائحهـم ـ أو معظمها ـ خارجة على المألوف فى الصـدق ، ولعـل السبب فى ذلك الرغبة فى الحظوة لدى الممدوحين ، وتنافس كثـير من الشـعراء فى ذلك(١٨) ٠

ب ـ شعر الشيعة وشعراؤها :

وهؤلاء الشعراء يعتقدون أن حبهم لعلى وبنيه جزء من حبهـم للرسول ﷺ ٠

وقد رأينا أن كثيرا من الشعراء سار فى ركاب خلفاء بنى أميـة طمعا فى خزائنهم ، ورغبة فيما عندهم ٠ وكان حظ آل البيت من المال والسلطان أقل كثيرا مما عند بنى أمية من المال والسلطان ، ومن هنـا فإن الشاعر الذى يتشيع لآل البيت سوف يعرض نفسه لغضب بنى أمية من جهة ، وسيحرم من عطايا كان يمكن أن يحظى بها لو كان إلى جانب الأمويين ٠

ولذا لا تكاد تجد شاعرا ظل على تشيعه ، أو أظهر مذهبه وجاهر به دون أن يعبأ بالعواقب ، اللهم إلا ما كان من (الكميت بن زيد) الذى وصف بأنه (شاعر أهل البيت) وله فيهم قصـائد كثيرة سميت

---

(١٨) راجع : أدب السياسة فى العصر الأموى ١٧٣ ـ ١٨٥ ٠

بالهاشميات ، ومنها بائيته التى يقول فيها :

طربت وما شوقا إلى البيض أطـرب
ولا لعبـا مـنى وذو الشـيب يلعـب

ولـم تلهـنى دار ولا رسـم منـزل
ولـم يتطربـنى بنـان مخضـب

ولكن إلى أهـل الفضـائل والنهـى
وخـير بنى حـواء والخـير يطلـب

بنى هاشـم رهـط النـبى فإننـى
بهـم ولهـم أرضى مـرارا وأغضـب

وهناك من الشعراء من كان شيعيا ثم تحول إلى الأمويين - ربما فى الظاهر فقط - مثلما فعل (كثير عزة) الذى كان شيعيا يؤمن بفكرة التناسخ وأن قبس النبوة لا يزال ينتقل فى على وأبنائه ، وفكـرة أن ابن الحنفية هو المهدى المنتظر وفيه يقول :

هـو المهـدى خبرنـاه كعـب
أخـو الأحبـار فى الحقـب الأوالى

وكان يمتلىء حقدا على ابن الزبير ، ثم لحق بعبد الملك وأصبح من مداحه ، وأخذ يثيره على ابن الزبير ، وظل يمدح عبد الملك ، ثم ارتحل إلى مصر يمدح أخاه عبد العزيز واليها ، وظن بعض المحدثين أن هذا المدح ضرب من النفاق ، لكنه لم يكن كذلك ، بل كان الشـاعر تابعا لإمامه ابن الحنفية الذى أعلن ولاءه لعبد الملك ، أو أن ذلك كان من التقية .

وظل (كثير) على تشيعه معتقدا أن الحق فى الخلافـة لعـلى

وبنيه فقط ، يقول فى ابن الحنفية حين توفى(١٩) :

الا إن الائمـــــة مـــن قريـــش
ولاة الحـــق اربعـــة ســـواء
علـى والثلاثــة مـــن بنيـــه
هـم الاسـباط ليس بهـم خفـــاء
فســـبط ســـبط إيمـــان وبـــر
وســـبط غيبتـــه كربـــلاء
وســـبط لا تراه العـــين حـــتى
يقـود الخيـل يقدمهـا اللـــواء
تغيـب لا يـرى فيهـم زمانـــا
برضـوى عنـده عسـل ومـــاء

ويعتقد أن سـواهم مغتصبون للخلافـة ، فقـال حـين حضرته الوفـاة(٢٠) :

برئت إلى الإلـه مـن (ابن أروى)
ومـن ديـن الخـوارج اجمعينـــا
ومن (عمر) برئت ومن (عتيق)
غـداة دعى أمـير المؤمنينـــا

وقد ظهر فى شعرهم الحزن على أئمتهم الذين سفك الأمويـون دماءهم وأخذوا يبكونهم ويندبونهم .. يقـول سـليمان بن قتـة يرثى الحسين :

---

(١٩) ديوان كثير ١٨٥/١ .

(٢٠) ابن أروى : عثمان بن عفان . العتيق : أبو بكر الصديق .
راجع : العصر الإسلامى / شوقى ضيف ٣٢٢ .

مـــررت عــلى أبيــات آل محمــد
فلــم أرهــا كعهدهــا يــوم حلـــت

وكانــوا رجــاء ثم صــاروا رزيــة
وقــد عظمت تــلك الرزايــا وجلــت

ألــم تر أن الشــمس أضــحت مريضة
لفقــد حســين والبــلاد اقشــعرت

وقــد أعولت تبكى الســماء لفقـــده
وأنجمهـــا فاجــت عليـــه وصــلت

وحمل شعراء الشيعة على خصومهم واتهموهم بالفسق والفجور . يقول (الأعور الشنى) ناعيا فعــل طلحة والزبير حين نقضا بيعتهمــا لعــلى(٢١) :

قــل لهــذا الإمــام قــد خبت الحــر
ب وتمـــت بـذلك النعمــــــــاء

وفرغنــا من حــرب مــن نكث العهــ
ــد وبالشــام حيـــة صـــــــماء(٢٢)

تنفث الســم ، ما لمــن نهشتــــــــ
ــه - فارمها قبل أن تعض - شـــفاء

ويمكن أن نوجز أهم ملامح شعرهم فى الآتى :

- معظم شعرهم فى آل البيت دار حول أحقيتهم بالخلافة . وقد تحسروا على قتلاهم وبكوهم بكاء مرا ، وقد حملوا على القتلة من بنى أمية ، وحرضــوا على الثأر منهم .

(٢١) الأخبار الطوال للدينورى ١٥٣ ، وأدب السياسة ١٩٧ .
(٢٢) من نكث العهد : طلحة والزبير . حية الشام : معاوية .

- ويمتاز شعرهم بحرارة العاطفة وصدق الانفعال ، وذلك لأن ولاءهم لآل البيت لم تشبه شائبة طمع فى مال أو سلطان ٠

***

جـ - شعر الخوارج وشعراؤها :

ذكرنا - فيما مضى - أن الخوارج كانوا فى شدة وعنف وثورة ، وكانوا يطلبون الاستشهاد فى سبيل عقيدتهم ، ويستصغرون الحياة ٠٠

وكانوا يستحلون دماء إخوانهم المسلمين وتلك سمة اتسم بها شعرهم بين سائر الشعر الأموى ٠

فهذا أحد شعرائهم - حين قدمه الحجاج إلى القتل - يقول :

ما رغبة النفس فى الحياة وإن
عاشت قليلا فالموت لاحقها
وايقنت انها تعود كما
كان براها بالأمس خالقها
يوشك من فر من منيته
فى بعض غراته يوافقها
من لم يمت عبطة يمت هرما
والموت كأس والمرء ذائقها

ويصفهم (الطرماح بن الكيم) بأنهم قوام ليل ، صوام نهار ، كثيرو الأنين والبكاء خوفا من النار ، وهم يسترخصون الموت ، حراص على مذهبهم(٢٣) ٠

---

(٢٣) ديوان الطرماح ١٥٧ ٠

لـلــــه در الشـــــراة إنهـــــــم

إذا الكـرى مــال بالطــلا أرقــوا

يرجعـــون الحنــــين آونـــــة

وإن عـــلا ساعة بهـم شــــهقوا

خوفـا تبيت القـــلوب واجفـــة

تــكاد عنهـــا الصـــدور تنفلـــق

كيف أرجى الحيـــاة بعدهـــم

وقـد قـضى مـؤنسى فانطلقــــوا

قـوم شـحاح عـلى اعتقادهـــم

بالفـوز ممـا يخـاف قـد وثقـــوا

ويقول عمران بن حطان راثيا أبا بلال بن مرداس لما قتل(٢٤):

لقـد زاد الحيـــاة إلى بغضـــــا

وحبــا للخـروج أبـو بـــــلال

احـاذر أن أمـوت عـلى فراشـــى

وأرجـو المـوت تحـت ذرا العـوالى

ولـو أنى علمـت بـأن حتــــفى

كحتـف أبى بـــلال لـم أبـــال

فمـن يك همـــه الدنيـــا فإنـــى

لهـا ـ والله رب البيـت ـ قـــالى

وقد كفروا مخالفيهم ورموهم بالإلحاد .. يقول قطرى بن الفجاءة:

فلـو شــــهدتنا يـوم ذاك وخيلنـــا

تميـح مـن الكفـــار كـل حـــريم

---

(٢٤) الكامل للمبرد ١٦٨/٣ .

رأت فتيـة بـاعـوا الإلـه نفـوسهم
بجنـات عـدن عنـده ونعـيم

وأشهر شعرائهم : عمران بن حطان ، والطرماح بن حكيم الطائى ، غير أنه كان مسالما غير متطرف ، فلم يكفر المسلمين .

قال الجاحظ(٢٥) :

« لم ير النـاس أعجب حالا من الكميت والطرماح ، كان الكميت عدنانيا عصبيا ، وكان الطرماح خارجيا من الصفرية ، وكان الكميت يتعصب لأهـل الكوفة ، وكان الطرماح يتعصب لأهل الشام ، وبينهما مع ذلك من الخاصة والمخالطة ما لم يكن بين نفسين قط ، ثم لم يجـر بينهما صـرم ولا جفـوة ولا إعراض ولا شىء مما تدعو هذه الخصـال إليـه » .

وأهم ما يتميز به شعـرهم :

— تصـوير البطولات من خلال شعرهم ، وبيـان مدى شجـاعتهم واستهانتهم بالمـوت .

— جـزالة أسلوبهم وقوته حتى يتناسب مع البـأس والشدة ، ولعل قوة أسلوبهم راجعة إلى بدويتهم التى لم تفسدها الحضارة، وكذلك لعدم اقتصـارهم فى الدعـوة إلى مذهبهم على القول باللسـان وإنما بمصاحبة السيف .

— ومن هنا جاء شعرهم صادقا ، حار العاطفة .

وقد خلا شعرهم من العصبية لجنس أو لون أو قبيـلة ، وذلك لأن هدفهم إسـلامى خـالص .

---

(٢٥) البيان والتبيين ١/٤٦ ، ٢/٣٢٣ .

— يتميز شعرهم بوحدة الموضـوع ٠

— اقتباسهم من القـرآن الكريم كما فى قول أحدهم :

هـم الفئـة القليـلة غـير شـك

على الفئـة الكثيـرة ينصـرونا

فهو من قوله تعالى : **« كم من فئـة قليـلة غلبت فئـة كثيـرة بإذن الله والله مع الصـابرين »** ٠

(د) شعـر الزبيريين وشعـراؤهم :

من أهم وأشعر شعـرائهم : (عبد الله بن قيس الرقيات) الذى يمدح عبد الله بن الزبير قائلا :

وابن أسمـاء خـير مـن مسـح الـر

كـن فعـالا وخـيرهم بنيـانـا

وإذا قيـل مـن هجـان قـريش

كنـت أنـت الفـتى وأنـت الهجـانا

وقال يمدح مصعبا أخاه(٢٦) :

حبـذا العيش حـين قـومى جميـع

لـم تفـرق أمـورها الأهـواء

قبـل أن تطمـع القبـائل فى ملـ

ـك قـريش وتشمـت الأعـداء

أيهـا المشتهـى فنـاء قـريش

بيـد الله عمـرها والفنـاء

---

(٢٦) ديوان ابن الرقيات : ١٧٦ ٠

إنمـــا مصعـب شهـــاب مـن الله

تجلـت عـن وجهــه الظلمـــاء

ملـكه مـــلك قـــوة ليس فيـــه

جبـــروت ولا بـــه كبـــرياء

ودعا إلى الثورة العارمة على الأمويين قائلا :

كيف نـومي علـى الفـراش ولـما

تشمـــل الشـــام غـــارة شعـــواء

تذهـل الشيـخ عـن بنيـه وتبـدى

عـن بـراهـا العقيـلة العـذراء(٢٧)

أنـا عنـكم بنى أميـة مـــزو

ر وأنتـم فى نفسـى الأعـــداء

ومن أشهر شعرائهم أيضـا : (أبو وجزة السعدى) الذى مدح آل الزبير وكان بعضهم قد أمر له بعطاء كبير (٢٨) :

راحت قـلوصى رواحـا وهى حـامدة

آل الزبيـــر ولم تعـــدل بهم أحـدا

راحت بستــين وسقـــا فى حقيبتها

ما حملت حملهـا الأدنى ولا السـددا

ذاك القـــرى لا كاقـوام عهـدتهم

يقـــرون ضيفهـم الملـوية الجـددا

وصحيح أن الناقة لا تحمل ستين وسقا ولكنه انصـرف عنهم ومعه كتاب منهم كـ (إذن صـرف) بستين وسقا وهى حاملته .

---

(٢٧) البرى : حلقات السوار والقرط .

(٢٨) الأغانى ٢٤٣/١٢ . الوسق : حمل بعير ، السدد : الوفق .

والشـاعر إذ يمدح الزبيريين يعرض بإبراهيم بن هشام المخزومى الذى طرد شاعرا من داره وضربه بالسياط ٠

والشعراء الزبيريون قد داروا فى شعرهم حول الإشـادة بآل الزبير ـ كما أسلفنا ـ والاحتجاج لهم وبيان أحقيتهم فى الخلافة ٠

وهم فى سبيل ذلك يحملون على خصومهم من الأمويين والخوارج والكيسـانية ٠

وقد رأينـا كيف أن (ابن الرقيات) يدعو للثورة على بنى أمية ، أما حملتهم على الكيسانية فمنه قول (سراقة البارقى) مكذبا المختار الثقفى زعيمهم ومبينـا سفاهاته وكذب ادعاءاته من أنه يوحى إليه (٢٩):

ألا أبلـــغ أبـا إسحـــــاق أنى
رأيـت البلـــق دهمـــا مصمتـــات(٣٠)

أرى عينـــى مـــا لـــم تبصـــــراه
كـلانا عــــــالم بالتـــرهــــــات(٣١)

إذا قـــالوا ، اقـــول لهــم : كـذبتم
وإن خـــرجـــوا لبســت لهــم أداتـــى

كفـــرت بوحيــكم وجعلــت نـــذرا
عـلى قتــــالكم حـــتى الممـــات

---

(٢٩) طبقات الشعراء ٣٧٦ ، الكامل للمبرد ١٦٩/٢ ٠

(٣٠) أبو اسحاق : كنية المختار الثقفى ٠ البلـق : جمـع أبلق وهو الفرس فيه سواد وبياض وتحجيل إلى الفخذين ٠ دهم : جمع أدهم وهو الفرس شديد السواد ٠ أدهم مصمت : أسود خالص ٠ رأيت : علمت ٠

(٣١) الترهات : الأباطيل ٠

(ب) النقـائض والخصومات القبليـة :

النقـائض : جمع نقيضة مأخوذة فى الأصـل من : نقض البنـاء إذا هدمه ، والحبل إذا حله . والنقيضـة فى الشعر : ما ينقض به ، وذلك بأن ينقض الشاعر الآخر ما قاله الأول .

هذا معنى النقيضـة فى اللغـة(٣٢) .

وفى اصطلاح أهل الأدب والنقد معناها :

« أن يتجـه الشـاعر إلى آخـر بقصيدة هاجيا أو مفتخرا ، فيعمد الآخـر إلى الرد عليه هاجيا أو مفتخرا ، ملتزما البحـر والقافية والروى الذى اختـاره الأول .. « .

١ - ولابد من وحدة الموضـوع فخرا أو هجاء أو سياسـة أو رثاء أو نسيبا أو جمـلة من هذه الفنون المعـروفة ، إذ كان الموضوع هو مجال المناقشة ومادة النقائض .

٢ - ولابد من وحدة البحـر ، فهو الشكل الموسيقى الذى يجمع بين النقيضتين ويجذب إليه الشاعر بعد أن يختاره الأول .

٣ - ولابد من وحدة الروى ، فذلك هو النهـاية الموسيقية المتكـررة التى تعد جزءا من النظام الموسيقى العام للمناقضة .

٤ - ولابد من وحـدة حـركة الروى ، إتمـاما للتنسيق الوزنى وإن اختلفت فى بعض النقائض .

وجانب المعنى هو مناط النقائض ومحورها الذى تدور عليه(٣٣)

---

(٣٢) لسان العرب - نقض ، القاموس ، الصحاح : نقض .

(٣٣) تاريخ النقائض فى الشعر العربى : د. أحمد الشايب ص ٣ ، (بتصـرف قليـل) .

وتسمى القصيدة الأولى نقيضـة بمعنى منقوضة ، والثانية نقيضة بمعنى ناقضـة ٠

تلك هى أسس النقائض ، فحيثما وجدت تحققت المناقضة ٠

لكن الدكتور « شوقى ضيف »(٣٤) ذهب إلى أن ما سبق العصر الأموى من هذا القبيـل لا يطلق عليه اسم (النقائض) وأسباب ذلك عنـده :

« أن الشعراء فيما قبل العصـر الأموى لا يتقيدون دائما بأن يردوا على خصومهم بقصـائد من نفس الوزن والقافية ٠٠ كما أنهم لا يقبلون على ذلك إقبـال المحترف الذى يهب حياته لمهنة يمارسها ، كما أن هذا النـوع من الشعر لم يستمر ، كما استمر فى العصر الأمـوى بصـورة منظمة ٠٠ كما أن الشاعر الجاهلى لم يكن يهجو ليضحك جمهورا كما نجد فى عصر بنى أمية ٠٠ ثم يقول الدكتور شوقى ضيف :

« وليس عندنا قبـل هؤلاء الشعراء الثلاثة دواوين للهجاء بهذا المعنى الذى نجد هعندهم ٠٠ » « من أجل ذلك كنا نزعم أن الهجـاء تحول عند الشعراء الثلاثة إلى فن جديد أو لون جديد ، ولا بأس أن نسمى هذا اللون باسم النقائض ٠٠ أما الهجاء الذى سبقهم فلا نسميه نقـائض إلا على ضرب من التجـوز ، أو على أنه بذور لهـذا اللون الجديد الذى نقرؤه عند الأخطل والفرزدق وجرير » ٠

ونحن نختلف مع الدكتور (شوقى ضيف) فى ذلك ٠٠

لأننا لو استقرأنا الشعر الجاهلى - فضـلا عن الإسلامى - لوجدنا

---

(٣٤) التطور والتجديد فى الشعر الأموى : ص ١٦٢ - ٢٦٦ ٠

أسس المنـاقضة وعنـاصرها متحققـة فيـه ، فلمـاذا نضن بإطـلاق النقـائض عليهـا ؟

غاية الأمـر أن الفـرق بين نقائض (الثلاثى الأموى) الفـرزدق وجرير والأخطل ـ ومن سبقهم : أن هجاء الثلاثى كان من بين أهدافه إضحاك الجمهـور وتسليتهم ، إذ أن هذا اللون قد صـار عندهم حرفة صـاروا فيهـا مهـرة حذاقا .

وهذه سنة التطـور ، فقد وصـل هذا الفن إليهم بعد أن مر بعدة مراحل واصـل فيها التطور حتى صـار إلى قمته عندهم فاشتهـروا به وصـار بهم لصيقا ، فلا تذكر كلمة نقائض إلا ويذكر هذا الثلاثى ..

إذاً : النقائض فن شعرى تمتد جذوره إلى الجاهلية (٣٥) ..

النقـــائض القبليـــة :

تحدثنا فيما مضى عن العصبية القبليـة التى عادت جذعـة بين القبـائل ، وقد ساعد بنو أمية على إذكاء نيران العصبية حتى يشغـلوا الناس ويحتفظوا بسلطانهم .

وبذلك اختلطت العصبية القبلية بالسياسـة الحزبية . « وكانت بعض القبائل التى سكنت نجدا وبوادى الحجاز قد نزحت إلى الشمال ومنها : سليم وعامر وكلاب فزاحمت قبيـلة كلب وأخواتها اليمنية فى الشـام وقبيلة تغلب فى الجـزيرة . فكان ما كان من خصـام قبـلى واسـع ، اصطدمت فيه المصـالح الاقتصادية فى الرعى وغيره ، كمـا اصطدمت المصـالح السياسية .

---

(٣٥) راجع : نماذج النقائض فى العصر الجاهلى فى رسالتى للدكتوراه: شعر قبيلة بنى سليم من الجاهلية حتى نهاية العصر الأمـوى ص ٣٩٣ وما بعدها .

فكانت كلب وأخواتها وتغلب مع بنى أمية ، فى حين كانت قيس - ومعها سليم - فى صفوف أعداء بنى أمية »(٣٦) ٠

لقد عادت الحـروب بين القبائل وعاشوا جاهلية أخرى وكانت لهم (أيام) كثيرة منها على سبيل المثـال :

(يوم مـرج راهـط) :

وفيه كانت الحرب بين قيس - ومنهـا بنو سليم - وتغلب ومن آزرهـا ٠

وذلك أنه لمـا مات يزيد بن معـاوية) بويع الخلافة لـ (ابن الزبير) ، وعزم (مـروان) على أن يذهب إليـه فيبايعه بالخلافة ، غير أن (ابن زياد) قدم من العـراق ، وبلغه ما عزم عليـه مـروان فقال له :

قد استحييت لك من ذلك ، أنت كبير قريش وسيدها تمضى إلى (أبى خبيب) فتبايعـه ؟ - يعنى ابن الزبير وهذه كنيتـه - فقال : ما فات شىء بعد ٠

فقام معه بنو أميـة ومواليهم وتجمـع إليـه أهل اليمن ، فسـار إلى دمشق وهو يقول : ما فات شىء بعد ٠

فقدم دمشق و (الضحاك بن قيس) قد بايعـه أهلهـا على أن يصلى بهم ويقيم لهم أمـرهم حتى يجتمع النـاس ، وهو يدعو سـرا إلى (ابن الزبير) ٠

---

(٣٦) العصر الإسلامى : د٠ شوقى ضيف ص ١٥٠ وما بعدها (بتصرف)

وكان (زفـر بن الحارث الكلابى) بقنسرين يبايـع لابن الزبير و (النعمان بن بشير) بحمص يبايع له أيضا ·

ثم ثار الخـلاف بين أتبـاع مـروان وأتبـاع ابن الـزبير ومنهم (الضحاك) الذى جهر بدعوته لابن الزبير ·

ولـما بايع النـاس (مـروان) سـار إلى (مـرج رهط) وبه (الضحاك بن قيس) ومعه ألف فارس ، وجاء مدد من حمص وقنسرين وفلسطين ·· واجتمع لمروان كلب وغسان والسكاسك والسكون ·

واشتعلت الحرب بين الفـريقين بمرج رهط ، واستمرت عشـرين ليـلة اقتتلوا فيهـا قتـالا شديدا ، وقتل الضحاك ومعه ثمانون رجـلا من أشراف أهـل الشام ، وقتلت قيس مقتلة عظيمة لم يقتـل مثلها فى موطن قط · وكان من القتلى (ثور بن معن السلمى) وذلك فى المحرم سنة ٦٥ هـ وقيـل بل آخـر سنة ٦٤ هـ ·

ولـما بلغت الهزيمة (زفر بن الحارث الكلابى) بقنسرين ، هرب منهـا فلحق بقرقيسيا ، واجتمعت عليـه قيس ، وصحبه فى هزيمته وهروبه شابان من سليم ، وجاءت خيـل مـروان تطلبهم ، فعـارض السلميان دونه فقتـلا ، ونجا (زفـر) واجتمعت إليه قيس فرأسـوه عليهم · يقول « زفر بن الحارث »(٣٧) :

أريـنى ســـلاحى لا أبـالك إننى

أرى الحـــرب لا تـزداد إلا تمـاديا

---

(٣٧) راجع : الكامل لابن الأثير ١٤٥/٤ ، ط دار صـادر ، أنسـاب الأشراف للبلاذرى ٥/ ١٣٦ - ١٤٢ ، ط مكتبى المثنى ، بغداد ، ومروج الذهب ٧٧/٢ ·

أتانى عـن مـروان بالغيـب أنـه
مقيـد دمى أو قاطـع مـن لسـانيا

ففى العيس منجاة وفى الأرض مهرب
إذا نحـن رفعنـا لهـن المثـانيـا

فلا تحسبـونى إن تغيبت غـافـلا
ولا تفـرحوا بى إن جئتـكم بلقـائيا

فقـد ينبت العشـب على دمن الثرى
وتبـقى حـزازات النفوس كمـا هيـا

أتذهـب كلب لـم تنلهـا رماحنـا
وتتـرك قتـلى راهـط هى كمـا هيـا

لعمـرى لقـد أبقت وقيعـة راهـط
لمـروان صـدعا بيننـا متنـائيـا

أبعـد عمـرو وابن معـن تتابعـا
ومقتـل همـام أمـنى الأمـانيـا

فـلم تـر مـنى نبـوة قبـل هـذه
فـرارى وتـركى صـاحبى ورائيـا

عشيـة أعـدو بالقـران فـلا أرى
من النـاس إلا مـن على ولاليـا

أيذهـب يـوم واحـد إن أسـأته
بصـالح أيـامى وحسـن بـلائيـا

فـلا صـلح حتى تنحـط الخيل بالقنا
وتثـأر من نسـوان كلب نسـائيا

ألا ليت شعـرى هـل تصيبن غـارتى
تنـوخا وحـى طىء من شفـائيـا

فاجابه جواس بن القعطل ، ويقال : ابن المخلاة الكلبى(٣٨) :

لعمـرى لقـد أبقت وقيعــة راهــط
على زفـر داء مـن الــداء باقيـــا
مقيمــا ثــوى بـ ين الضـلوع محـله
وبين الحشــا أعيـا الطبيب المـداويا
يبـكى على قتــلى سليـم وعــامر
وذبيــــان معـذورا ويبكى البــواكيا
دعــا بســلاح ثـم أحجـم إذ رأى
سيـوف جنــاب والطـوال المذاكيـا
عليهـا كاسـد الغـاب فتيـان نجـدة
إذا شـرعوا نحو الطعـان العواليـا

وفى خراسان كان (عبد الله خازم) يدعو إلى ابن الزبير ، فسار إليهـا وقاتل ولاتها دعاة مـروان •

وساعدته (تميم) حتى غلب عليهـا ، غير أنه جفـاهم بعد ذلك فانتقمـوا منـه بقتلهم لابنـه محمـد ، واشتعـل القتـال بينهما إلى نأ قتـل ابن خـازم •

قال موسى بن عبد الله بن خـازم يرثى أخـاه محمـدا هـذا بعد قتـــله •

ذكـــرت أخى والخـلو ممـا أصـابنى
يغـــط ولا يدرى بمـا فى الجـــوانـح

---

(٣٨) أنســاب الأشـراف ١٤٢/٥ •

دعتــه المنـــايا فاستجـــاب دعــاءهـــا
وأرغـــم أنفى للعـــــدو المكاشــــح

فــلو نـــاله المقــدار فى يـــوم غــــارة
صبرت ولــم أجــــزع لنـــوح النـــوائح

ولـــكن أسبـــــاب المنـــــايا صــرعتـــه
كــريمـــا محيــــاه عــريض المنـــازح

بكـــف امـــرىء كــز قصــير نجـــــاده
خبيــث ثنــاه عــرضـــة للفضــــائح (٣٩)

لقد اغتيل أخوه اغتيالا وهذا ما جعله يأسى ويحـزن ، أما إذا كان قتله فى حرب فإنه لم يحزن لنواح النساء النادبات ..

ثم من الذى اغتـاله ؟ لقد اغتـاله رجل خبيث قبيح ، قصــير حمائل السيف مما يدل على قصـر قامته ، وهو رجـل سوء ، يفعـل المنكرات ويعرض نفســه للفضائح .

وانقضى أمــر المرج ، غير أن قيســا لم تنس قتـلاها ، وظلت تتحين الفــرص لتثأر لنفسها وكان من رؤسائهم آنذاك الفارس المغوار (عمير بن الحباب السلمى) الذى قادهم فى عدة حروب منها :

(يــوم الغـــوير) :

---

(٣٩) معجم الشعراء : ٢٨٧ ، البصائر والذخائر لأبى حيان ١/٤٩٧ . غطيط النائم والمخنوق : شخيره . الجوانح : أوائل الضلوع تحت الترائب مما يلى الصدر ، وقيل : الضـلوع القصـار فى مقدم الصدر . المكاشح : المتولى عنك بوده ، وهو العدو المبغض الذى يضمر لك الحقد والعداوة . المقدار : الموت . كز : بخيـل أو قبيح قصير نجاده : قصـير حمائل السيف مما يدل على قصر قـامتـــه .

وفيـه جمع (عمير) قيسـا حتى وصـلوا إلى قرب ديار كلب وكأن رئيسهم آنذاك (جميد بن بجدل) فقتلوا من كلب مقتلة عظيمة ، واتبع (عمـير) (ابن بجـدل) .. وكان (عمير) يحث فرسـه قائلا(٤٠) :

أقـدم (صــدام) إنه ابن بجــدل
لا تـدرك الخيــل وأنـت تـدال
إلا تمـر مثـل مــر الأجــدل

وتمكن (ابن بجدل) من الفرار .. فقال عمير(٤١) :

وأفلتنـا ركضـا حميـد بن بجــدل
على سـابح غـوج اللبــان مشــابر
ونحن جلبنـا الخيـل قبـا شــوازبا
دقـاق الهـوادى داميــات الـدوابر
إذا انتقصت من شـأوه الخيـل خلفه
تـرامى به فــوق الـرماح الشـواجر
تسـائل عن حبى رفيــدة بعـد مـا
قضـت وطـرا من عبـد ود وعـامر

وكانت (هند الجلاحية) تحرض كلبا قائلة(٤٢) :

الا هــل ثائـر بدمـــــاء قـــوم
أصـــابهم عميـــر بن الحبــــاب

---

(٤١) نفسه ٢٦/٢٤ . غوج اللبان : واسع جلدة الصدر .
(٤٠) الأغانى ٢٥/٢٤ ، تدأل : تمشى مشيا بطيئا . الأجدل : الصقر.
(٤٢) الأغانى ٢٦/٢٤ ، ٢٧ .

وهـل فى عـامــر يـومــا نكيـر

وحيى عبـــد ود أو جنـــاب

فـإن لم يثـأروا من قـد أصـابوا

فـكانوا أعبـــدا لبنى كــلاب

ابعـد بنى الجـــلاح ومـن تركتـم

بجـانب كـوكب تحـت التـــراب

تطيـب لغــائر منـكم حيـــاة

الا لا عيـش للحـى المصـــاب

فلما قتل (عمير) منهم مقتلة عظيمة قال يرد عليها (٤٣) :

الا يا هنـــد هنـــد بنى الجـــلاح

سقيـت الغيـث مـن قلـل السحـاب

المـا تخبـــرى عنـــا بانـــا

نـرد الكبـش أعضـب فى تبـــاب

الا يا هنــد لـو عاينـت يـومـــا

لقـومك لامتنعـت مـن الشـــراب

غـــداة ندوسهـم بالخيـــل حتـى

اباد القتـــل حي بني جنــــاب

ولـو عطفـت مـواســاة حميـدا

لغـودر شـلوه جـــزر الذئــاب

وكتاب الأغانى زاخر بالشعر الذى قيـل فى هذه الوقعة .

أما يوم البشـر (٤٤) :

---

(٤٣) الأغانى ٢٤/٢٦ ، ٢٧ .

(٤٤) راجع الكامل لابن الأثير ٤/٣١٩ وما بعدها ، أنساب الأشراف ٥/٣٢٨ وما بعدها ، الأغانى ١٢/١٩٨ وما بعدها ..

فسببه أن الأخطل التغلبى قدم على (عبد الملك بن مروان) وعنده (الجحاف بن حكيم السلمى) ووجوه قيس فقال الأخطل(٤٥) :

ألا سائل الجحاف هل هو ثائر
بقتلى اصيبت من سليم وعامر

اجحاف إن نهبط عليك فتلتقى
عليك بحور طاميات الزواخر

تكن مثل ابداء الحباب الذى جرى
به البحر تزهاه رياح الصراصر

فوثب (الجحاف) يجر مطرفه وما يعلم من الغضب • فقال عبد الملك للأخطل : ما أحسبك إلا قد كسبت قومك شرا •

فافتعل الجحاف كتابا من (عبد الملك) أنه ولاه على صدقات بكر وتغلب ، فصحبه من قومه نحو ألف فارس ، فثار بهم حتى بلغ الرصافة ، ثم كشف لهم أمره ، فثاروا ومشوا حتى صبحوا (عاجنة الرحوب) والبشر - وهو واد لتغلب - فأغاروا على تغلب ليلا فقتلوهم، وبقروا بطون نسائهم الحوامل وقتلوا غير الحوامل •

ثم قال الجحاف يرد على الأخطل(٤٦) :

أبا مالك هل لمتنى إذ حضضتنى
على القتل أم هل لامنى لك لائمى ؟

---

(٤٥) ديوان الأخطل : ٤٢٦ ، تحقيق إيليا سليم الحاوى •

(٤٦) أنساب الأشراف ٣٣٠/٥ ، الكامل لابن الأثير ٣٢٢/٤ ، رغبة الآمل من كتاب الكامل للمرصفى ١٦/٥ ، ١٢ ، الشعر والشعراء ٤٨٥ ، المؤتلف والمختلف : ١٠٢ •

أبا مـــالك إنى أطعتـــك فى التى

حضضت عليهـا فعـل حران حـازم

فـإن تدعـنى أخـرى أجبـك بمثلهـا

وإنى لطـب بالـوغى جـد عـالـم

ويقـــول :

ألم أفنكم قتـــلا وأجـدع أنـوكم

بفتيـان قيس والسيـوف الصـوارم

بـكل فـتى ينعى عمـــيرا بسيفـــه

إذا اعتصمت أيمـــانهم بالقـــوائم

فـإن يطـردونى يطردونى وقد جـرى

بى الـورد يومـا فى دمـاء الأراقـم

نكحت بسيفى من زهـير ومـــالك

نـكاح اغتصـــاب لا نـكاح الـدراهم

إلـخ ما قـاله .

ثم إن الأخطل قدم على عبد الملك فأنشده قوله :

لقـد أوقـع الجحـاف بالبشـر وقعـة

إلى الله منهـا المشتـكى والمعـــول

وهرب الجحاف إلى بلاد الروم .

رأى (عبد الملك) أنه إن تركهم على حالهم لم يحكم الأمـر ، فأمـر (الوليد بن عبد الملك) فحمـل الدماء التى كانت قبل ذلك بين قيس وتغلب ، وضمن الجحاف قتلى البشـر ، وألزمه اياها عقوبة له ، فاستطاع أن يأخذها من (الحجاج) وأمنه عبد الملك .

وكان عبد الملك قد استنشد الجحاف بعض ما قال فى هذه الغزوة فأنشـده :

ضـــبرت سليـــم للطعـــان وعـــامـــر

وإذا جـزعنـــا لـم نجـــد من يصبـــر

فقال له عبد الملك : كذبت ٠ ما أكثر من يصبر ، ثم أنشد :

نحن الذين إذا عـــلوا لم يفخـــــروا

يوم اللقـــا وإذا عـــلوا لـــم يضجـــروا

فقال عبد الملك : صدقت ، حدثنى أبى عن أبى سفيان بن حرب انكم كنتم كما وصفت يوم فتح مكة (٤٧) ٠

هذه نماذج للأيام التى حدثت بـ ين قيس وتغلب ، ونلاحظ فيهـا أن العصبية القبلية قد اشتدت ضراوة عما كانت عليه فى العصر الجاهلى

ولم يكن النزاع القبلى مقصورا على هاتين القبيلتين ، بل كان هناك صراع بين تغلب وتميم ، وبين تميم وبكر ٠٠

وكان من الشعراء الذين ظهرت فى شعرهم النزعة القبلية بوضوح والتزام وحفاوة (القطامى) وهو يعد مثـالا لشعراء الفروسية القبلية ففى شعره أصح دليـل على شعر الحرب الذى سكبه صاحبه على قومه فلم يجعـل لغيرهم نصيبا فى شرفه ، وقد ذهب القطامى بعامود هذا الضرب من الشعر الأموى (٤٨) ٠

وكان (القطامى) قد أسر فى موقعـة (ماكسين) لكن (زفـر بن الحارث) اكرمه أيما إكـرام فانقلب (القطامى) إلى داعية سلام ، وهدد وخوف من الحرب وويلاتها قائلا (٤٩) :

---

(٤٧) الأغانى ٢٠٤/١٢ ٠
(٤٨) راجـع : شعر الحرب فى أدب العرب : د٠ زكى المحاسنى ص ٩٠
(٤٩) ديوان القطامى : تحقيق د٠ السامرائى ص ٣٤، ٣٥، ٤٢ ٠

امـــور لـــو تدبرهــــا حليـــم
إذن لنهــى وهيــب مــا استطــاعا

ولــكن الأديـــم إذا تفـــــــرى
بلى وتعينــــا غلــب الصنــاعـــا

ومعصيــة الشفيـــق عليـــك ممــا
يزيــدك مـــــرة منــه استمــاعـــا(٥٠)

وخـير الأمـــر مـا استقبلـت منــه
وليــس بــان تتبعـــه إتبــاعـــــا

كـــذاك ومـــا رأيــت النـــاس إلا
إلى مــاجــر غـــاويهم سـراعـــا

تــراهـــم يغمـــزون مــن استركــوا
ويجتنبـــون مــن صـــدق المصـــاعا

لقد وقف هذا الشـاعر موقفا إنسـانيا كريما ، ولم يسايرتيـار العصبية الجارف ، وأخذ يتوجع لمصـابى القبيلتين - قيس وتغلب - ، ولمـا حدث من فرقة وشقاق جرت إلى قتـل وتشـريد وخراب ودمار .. ويبدو أنه فعل ذلك بسبب إحسان (زفر) إليه(٥٢) .

---

(٥١) الأبيات الأربعـة الأخيرة فى الشعر والشعـراء اثنين اثنين ص ٧٢٤ ، ٧٢٦ . استركوا : استضعفوا ورأوه ركيـكا . المصـــاع، والمماصعة : المقاتلة والمجالدة بالسيوف .

(٥١) راجع : تاريخ الشعر العربى : جـ ١ ، محمد عبد العزيز الكفراوى ص ١٨٦ .

(حـ) النقـائض الفـردية :

وهى فـردية لأن كل شاعر كان مشغولا بنفسـه أكثر مما هو مشغول بقبيلتـه ..

وأبرز فرسـان هذا النـوع (الثالوث) المـكون من : (جـرير والفـرزدق والأخطل) .. ونقائض جرير مع الفرزدق أكثر من نقائضه مع الأخطل وسابقة عليهـا .

وجـرير : من بنى كليب بن يربوع .. من تميم ، فهو والفرزدق ابنا عمـومة فكلاهما من تميم . لكن تميما كانت قد توزعت إلى عشائر وبطون ولم يكن يجمعها كيـان واحد .

ولذلك لا تعجب حـين تجد جـريرا ـ فى أول الأمـر ـ زبيرى الهوى قيسى النزعة . أما الفرزدق فقد كان تميمى النسب والنزعة .

ويعد (جـرير) حجـر الزاوية فى هـذا الفن ونقطـة اشتراكه وفارسـه الأول .

بدء النقائض بين جـرير والفرزدق(٥٢) :

شب خلاف بين عشيرة جرير (بنى الخَطفى) و (بنى جحيش) ، وكان (بنو جحيش) مفحمين لا يقولون الشعر ، فاستعانوا بـ (غسان ابن ذهيل بن البراء بن سليط) ، فهجا (غسان) بنى الخطفى ..

وكان (جـرير) يرعى غنم أبيـه اذ ذاك ، فمـر ذات يوم على (غسـان) ينشد بعشيرته ، فرجز بهم جـرير رجزا قبيحا بالغ فيـه ،

---

(٥٢) راجع تفصيل ذلك فى : تاريخ النقائض فى الشعر العربى ص ٢١٣ وما بعدها .

وهنا لحم التهاجى بين جـرير وغسـان ، وأخذ التهاجى صـورة المناقضة الشعرية بعد الرجز . فقال غسان أبياته :

لعمـرى لئن كانت بجليـة زانهـا

جـرير لقد أخـزى كليبـا جـريرها

فأجـابه جـرير بقصيدته :

ألا بكـرت سلمـى فجـد بكـورها

وشـق العصـا بعـد اجتمـاع أميرها

ثم دخـل شـاعر اسمه (البعيث) المجاشعى الدارمى من تميم وتبادل النقائض مع جرير . . وبدأ جرير المناقضة بقوله :

طـاف الخيـال ، وأين منـك لمـاما

فارجـع لـزورك بالسـلام سـلامـا

فقال البعيث :

أجـرير أقصـر لا تحـن بـك شقـوة

إن الشـقى تـرى لـه أعـلامـا

غير أن الغلبة كانت لجـرير على مجاشع وشاعرهم (البعيث) . ومن هنا قامت نسـاء بنى مجاشع وأتين الفرزدق ـ وكان قيد نفسـه حتى يجمـع القـرآن وعاهد الله ألا يهجو أحدا أبدا ـ فقلن : قبح الله قيدك ، فقد هتك جرير عورات نسائك ، فلحيت شاعر قوم ، فأحفظنه، ففض قيده وكان قد تنبـأ بالتحامه مع جرير .

فلمـا رأى ما وقـع فيه البعيث قال قصيدته التى يهجى فيهـا البعيث وينهض لمقـاومة جـرير :

الا استهـــزات منى هنيـدة ان رات

أســـيرا يدانى خطـوه حلـق الحجل

فرد عليه البعيث :

إهـاج عليـك الشـوق اطـلال دمنـة

بناصفـة الجـوين أو جـانب الهجـل

فقال جرير يجيب البعيث ويهجو الفرزدق :

عـوجى علينـا واربعى ربة البغـل

ولا تقتلينـى لا يحــل لكم قتـــلى

نقـائض جـرير والأخطـل (٥٣) :

قيـل إنه لمـا بلغ الأخطل تهاجى جرير والفرزدق قال لابنه مالك: انحـدر إلى العـراق حتى تسمع منهما فتأتينى بخبرهما ، ففعل ابنه ، ثم لقى أباه فقـال له : وجدت جـريرا يغـرف من بحـر ، ووجـدت الفـرزدق ينحت من صخر .

فقال الأخطـل : الذى يغـرف من بحر أشعرهما ، ثم قال يفضل جـريرا على الفـرزدق :

إنى قضيت قضـــاء غير ذى جنـف

لمـا سمعـت ولمـا جـــاءنى الخـبر

إن الفـرزدق قد شـــالت نعـامتـه

وعضـه حيـــة من قـومه ذكـــــر

لكن أحد بنى مجاشع بعث إلى الأخطـل بعطية ضخمة طالبـا

---

(٥٣) راجع : نقائض جرير والأخطل ص ١٩٧ ، وتاريخ النقائض ص ٢١٩ وما بعدها .

إليـه أن يهجو جـريرا وألا يعـين على الفـرزدق فقال الأخطـل فى ذلـك :

اخسأ كليب إليـك ، إن مجـاشعـا
وأبـا الفــوارس نهشــلا أخــوان

قـوم إذا خطـرت عليـك قـرومهم
جعـــلوك بـين كـلاكل وجــــران

وإذا وضعـت أبـاك فى ميـزانهـــم
رجحـوا وشـال أبـوك فى الميــزان

ولقـد تجـــاريتم إلى أحســـابكم
وبعثـتم حـكما مـن السلطـــان

فـإذا كليـب ليس تعـــدل دار مـا
حـتى تــوازن حـــزرما بـابـــان

أجــرير إنــك والــذى تسمـــو لـه
كعسيفــة فخــرت بحــدج حصــان

وإذا سمعـت بـدارم قـد أقبــلوا
فاهـــرب إليـك مخــافة الطــوفان

فبلغ ذلك جريرا فقال يرد عليه بنقيضته :

لمـن الديـار ببـرقــة الروحـــان
إذ لا نبيــع زمـاننـــا بـزمـــان

فرد الفــرزدق على جـرير بنقيضته :

يا ابن المـراغـــة والهجـاء إذا التقت
أعنـاقـــه وتمـاحـــك الخصمـــان

وبذلك دخل الأخطل المعـركة ، لكنه ندم ، وقال : ما أدخلنى بين رجلين من بنى تميم ، ولمـا بلغه قول جـرير :

لاقيت مطلع الجراء بنابه

روق شبيبته وعمرك فان

قال الأخطل : صدق ، إنه لشاب ، ولقد وليت .. وبقى فى المعركة حتى هلك .

فقال فيه جرير :

زار القبور ابو مالك فاصبح اهون زوارها

فأجابه الفرزدق :

زار القبور ابو مالك برغم العداة واوتارها

ولما مات الفرزدق قال جرير :

هلك الفرزدق بعد ما جدعته

ليت الفرزدق كان عاش قليلا

لكنه بكى ، فسئل : ما يبكيك ؟ قال : بكيت لنفسى ، والله إن بقائى بعده لقليل ، إنه قل ما كان اثنان قرينان أو مصطحبان أو زوجان إلا كان أمد بينهما قريبا ، ثم أخذ يرثى الفرزدق ، وما غبر بعده إلا قليلا حتى هلك .

مقومات النقائض الأموية :

١ - كانت الأيام من أهم هذه المقومات ، إذ اتخذ المتناقضون منها ذخيرة ، كل منهم يحاول أن يعرض أمجاده ومفاخره ، ويفضح مثالب خصمه ، ويعيره بهزيمة قومه وقد ذكرنا أمثلة لها فى النقائض والخصومات القبلية .

٢ - اتخذوا من الأنساب أيضا ركيزة فى النقائض ، وكان ينبغى على القوم أن ينسوا هذه المفاخرة بالأنساب إذ نهى الإسلام عنها لكن

الأمويين لما نهضوا « اعتمدوا على العصبيات العربية المختلفة ، وكانت الأنساب أساس ذلك بين اليمن وعدنان ، وبين ربيعة ومضر ، وبين قيس وتميم ، وبين العرب والموالى ، وبين الأموية والهاشمية ، وعلى ذلك قام الشعراء يؤرثون العداوات ، ويلهبون نارها بالفخر والهجاء »(٥٤) ٠

هذا (جرير) يذكر أن أم (البعيث) من سبى أصفهان قائلا :

انبئت انـك يا ابن (وردة) آلـف

لبنى حـدية مقعـدا ومقامـا

وبعتز (البعيث) بنسبه الدارمى فى إحدى نقائضه :

فـانى امـرؤ مـن آل بيبـة نـابـه

وسـاد بنى سفيـان أولهـم قبـلى

وجـدت ابى مـن مـالك حـل بيتـه

بحيث تنصـى كل أبيض ذى فضـل

من الدارميـين الـذين دمـاؤهـم

شفـا من الـداء المجنـة والخبـل

ولكن الفرزدق ينفى البعيث عن مجاشع الدارميين قائلا له :

ومـا انت منـا غـير أنـك تدعـى

إلى آل قـرط بعـد مـا شبت عانيـا

وجرير ينسب الفرزدق إلى القين ومعه مجاشع قائلا :

وجـدنا جبيـرا ابـا غـالـب

بعيـد القـرابة مـن معبـد

---

(٥٤) تاريخ النقـائض : ص ٥١ ٠

اتجعـــــل ذا الكــير مـــن دارم

وايـن سهيـــــل مـن الفرقـــــد

٣ - وتاتى المفـاخرة بالاحساب ، والحسب هو « ما يعد من مفاخـر الآباء أو هو المـال أو الدين أو الكـرم أو الشـرف فى الفعـل أو الشـرف الثابت فى الآباء » .

وكان ذلك من اهم مقومات النقائص الأموية ، وأكثرها شيوعا ، من ذلك قول الفرزدق يرد على جـرير :

منــا الذى اختــير الرجــال سمــاحة

وخـيرا إذا هــب الـرياح الـزعازع

ومنــا الذى أعطى الرســول عطيــة

إســارى تميم والعيـــون دوامـــع

ومنــا خطيب لا يعــاب وحــامــل

اغــر إذا التفـت عليــه المجــامع

ومنــا الذى احـيــا الوئيـد وغــالب

وعمـرو ومنــا حــاجب والأقــارع

ومنــا الذي قــاد الجيــاد على الوجى

لنجــران حتى صبحتهـــا النــزائع

اولئـــك آبائى فجئـــنى بمثلهـــم

إذا جمعتنـــا يا جـــرير المجـــامع

وفى المقابل يعير المناقض خصمه بمثلبة من المثالب ، ويشنع عليه .. مثـال ذلك حادثة السيف وضـربة الرومى .. فقد حج سليمان بن عبد الملك ، وقدمت إليـه الروم فجعـل يدفعهم إلى وجـوه النـاس لقتلهم ، وقدم لجـرير رجل فضربه فابان راسـه ، ودفع إلى الفرزدق

أسير فضربه فلم يصنع شيئا ، فضحك الناس وغضب الفرزدق ، وأخذ يعتذر عن ذلك بالشعر وقال جرير فى ذلك :

أكلفت قيسا أن نبا سيف غالب
وشاعت لـه أحدوثة فى المواسم

بسيف أبى رغوان سيف مجاشع
ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم (٥٥)

ضربت به عند الإمام فارعشت
يداك وقالوا : محدث غير صارم

ضربت به عرقوب ناب بصوءر (٥٦)
ولا تضربون البيض تحت الغماغم

عنيف بهز السيف قين مجاشع
رفيق باخرات الفؤوس الكرازم (٥٧)

وقال الفرزدق فى ذلك :

فلا نقتل الأسرى ولكن نفكهم
إذا أثقل الأعناق حمل المغارم

---

(٥٥) ابن ظالم : هو الحارث بن ظالم المرى أحد فرسان قيس فى الجاهلية ٠

(٥٦) صوأر : يوم من أيام عشيرة الفرزدق ، قام أبوه غالب بنحر مائة بعير للناس وقيل أربعمائة ٠ وجرير يقلب هذه إلى مثلبة إذ يقول : إنكم تعرفون ضرب عراقيب الإبل فقط ٠ والناب : الناقة المسنة ٠

(٥٧) البيض : خوز المحاربين ٠ الغماغم : أصوات الجيوش ٠

فهـل ضـربة الـرومى جـاعلة لـكم

ابـا عن كليـب أو أبا مثـــل دارم

كذلك سيـوف الهنـد تنبـو ظبـاتها

ويقطعـن أحيـــانا منــاط التمـــائم

فقد سخر جـرير بخيبة الفـرزدق وردها إلى خيبة رهطه ، وقال إنها أمر متوارث وقرنها بحادث صوأر ومسـألة القيون .

وأما الفـرزدق فاعترف بما حدث وأقـر به لكنه اعتذر عنه بأن قـومه لا يقتلون الأسـارى وإنما يفكونهم ، وقال جـرير : إن هذا الأمر لا يهمك ولا يرفـع من شـأنك ، وأن المنتصـرين لابد أن تنبو سيوفهم يومـــا . .

٤ - ثم افتخـروا بشعرهم ورموا خصومهم بالعى تارة ، وبالانتحال والسرقة مـرة أخرى .

فهذا الفرزدق يفتخر بتلمذته على شعر الفحول قائلا :

وهب القصـائد لى النـوابغ إذ مضـوا

وأبو يزيد وذو القـــروح وجـــرول

الأبيـــات

وقـد رمى جـرير بسرقة شعره قائلا :

ان استـراقك يا جـــرير قصـــائدى

مثـل ادعـاء ســوى أبيـك تنقـل

فيرد عليه جـرير قائلا :

حسـب الفـرزدق أن تسـب مجـاشع

ويعـــد شعـــر مـــرقش ومهلهـــل

نمت هذه النقـائض فى العصـر الاموى نموا كبيرا وساعد على نمـوها :

— حاجة المجتمع العـربى خاصـة فى البصـرة إلى ضرب الملاهى يقطع به الناس أوقاتهم الطويلة ٠

— كانت القبـائل فى العـراق شديدة الصـلة بحياتها البدوية القديمة فأخذت نيران الهجاء تشتعل فيها اشتعالا شديدا ، وانبرى الهجاءون يملأون وأقات النـاس وسـرعان ما تحولت الأهاجى إلى نقـائض مثيـرة ٠

— أضف إلى ذلك العوامل العقلية ٠٠ إذ نما العقـل العربى نمـوا كبيرا وتمـرن على الجدل والحوار والمناظرة فى النحل السياسية والعقيدية وفى الفقـه وشئون التشريع ٠

لذا رأينـا شعراء النقائض كل منهم يدرس أمجاد ومفاخر قبيلته وما يقابلها من مثالب الخصـوم على مدى تاريخهم الطويل فى الجاهلية وكانت هذه المناظرات تتخذ من سوق (المـربد) مسرحا لها(٥٨) ٠٠

خصـائص النقـائض الأمـوية :

١ ـ ظهرت السمات الإسـلامية فى هذا الفن ظهورا شديدا ، وإن كان فرسان هذا اللون أقـل تأثرا بالإسلام من شعراء الخوارج ٠

وكان هذا التـأثر منوعا بين تضمين آى القـرآن ، أو أحكام الإسلام أو مسايرة روحه ، والفخر به وإنكار ما عداه كالمسيحية وشعائرها ٠

— فهذا الفرزدق يقول فى نقيضته الشهيرة :

إن الذى سمـــك السمـاء بنى لنـا
بـين دعـائمـه أعـــز وأطـــول

من قوله تعـالى : « **أأنتم أشـد خلقـا أم السمـاء بنـاها ، رفع سمكها فسـواها** »(٥٩) .

— وقـوله :

ضـربت عليـك العنكبـوت بنسجهـا

وقضى عليـــك به الكتـاب المنـزل

من قوله تعـالى : « **مثـل الذين اتخـذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذ بيتـا .. الآية** »(٦٠) .

— ويقـول :

ولسـت بمـأخـوذ بلغـــو تقـــوله

إذا لـم تعمـــد عاقـدات العـــزائم

فهو من قوله تعـالى : « **لا يؤاخـذكم الله باللغـو فى أيمـانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمـان ..** »(٦١) ففيه حكم فقهى .

أمـا جـرير فكان أشد تأثرا بروح الإسـلام ، وقـد حمـل على المسيحية التى يعتنقها خصمه (الأخطل) وأنكر شعائرها ..

— فها هو يشـير إلى قصـة أصحاب الفيـل وعزمهم على هدم الكعبة قـائلا :

لمـا رأوا جـــم العـــذاب يصيبهم

صـــار القيـون كســاقة الأفيـــال

— ويقول الأخطـل :

---

(٥٩) سـورة النـازعات : ٢٧ ، ٢٨ .

(٦٠) سـورة العنكبـوت : آية ٤١ .

(٦١) سـورة المـائدة من الآية : ٨٩ .

وهو لم يكتف بوصف كليب باللؤم والدناءة وابتذال الناس ، بل جعل نارهم أيضا حقيرة ضئيلة تطفئها مياه قليلة ، وهى سخرية لاذعة ٠

— وها هو جرير يقول فى تغلب :

والتغلبى إذا تنحنح للقرى
حك استه وتمثل الأمثالا

صورة قبيحة ، مضحكة ٠

— ويقول الفرزدق لجرير :

أزرى بجريك أن أمك لم تكن
إلا اللئيم من الفحولة تفحل
قبح الله مقرة فى بطنها
منها خرجت وكنت فيها تحمل

غير أن جريرا كان أشدهم إفحاشا وإقذاعا ، ولعل ذلك لإحساسه بأنه يقف وحده فى مقابل شعراء كثيرين ، فإذا هاجمه شاعر ، أو أعان عليه شخص ، أنشب فيه جرير مخالبه ، ونهش عرضه ، ونشر مخازيه ٠٠

٣ - لم تكن هذه النقائض منبعثة من حقن دفين وكراهية بغضاء بقدر ما كانت لونا من العبث الفنى والمباراة الشعرية ٠

يروى ابن خلكان :

أن جريرا والفرزدق قصدا الرصافة إلى هشام بن عبد الملك مرتدفين على ناقة ، فنزل جرير لقضاء حاجته ، فجعلت الناقة تتلفت فضربها الفرزدق وقال :

إلام تلفتين وأنت تحتى ... وخير الناس كلهم أمامى
متى تردى الرصافة تستريحى
من التهجير والدير الدوامى

ثم قال : الآن يجيء جرير فأنشده البيتين فيقول :

تلفت أنهــا تحــت ابن قـــــين

إلى الكـــيرين والفـــأس والكهـــام

متى تــرد الرصــــافة تخــز فيهـا

كخـــزيك فى المــواســم كل عـــام

فجاء جرير والفرزدق يضحك ، فقال : ما يضحكك يا أبا فراس ؟ فأنشده البيتين الأولين ، فأنشده جـرير البيتـين الآخـرين ، فقـال الفـرزدق : والله لقد قلت هذا ، فقال جـرير : أما علمت أن شيطاننا واحـد ؟!

إلى هذاالـ حد بلـغ توقع أحدهما لمـا يرد به على الآخـر ، وإن صحت هذه الحكاية - فإن ذلك كان بعد طول فترة فى المباريات بينهما حتى عـرف كل منهما مذهب صاحبه الفنى .

- كما تدل على أن النقائض بينهما كانت تستحيل أحيانا صنعـة فنيـة ، وكأنها مبـاراة رياضية ، ولا ضير على من يخسر ، بدليل أنهما مرتدفان على ناقة واحدة ..

٤ - قوة الجدل والتحـام الشعراء بالملاحاة فى المعـانى والأحداث ، وكان كل شـاعر يلتقط كل كلمـة يقولها السـابق فيبنى عليهـا نقيضته . مثال ذلك :

- حين قال الفـرزدق :

إن الذى سمـك السمـاء بنى لنــا

بيتـــا دعـائمـــه أعـــز وأطـــول

رد عليه جـرير :

اخـزى الذى سمـك السماء مجاشعـا
وبنى بنـــاءك فى الحضيض الأسفـل

بيتـــا يحمـم قينـكم بفنـــائه
دنســا مقـاعده خبيـث المـدخــل

ولقـد بنيـت أخـس بيـت يبتـــنى
فهـدمت بيتـكم بمثـــلى يذبــل

ولمـا قال الأخطل :

حتى اصـابت سليمـــا من عداوتنـــا
إحـدى الدواهى التى تخشى وتنتظر

فأصبحت منهـم سنجـــار خاليـــة
والمحلبيـــات فالخـــابور فالســـرر

كـــروا إلى حــــرتيهم يعمــرونهما
كمـا تكـر إلى أوطـــانها البقـــر

قال له جـرير :

مـوتوا من الغيظ غما فى جـزيرتكم
لن تقطعـــوا بطـن واد دونه مضـــر

إنى نفيتـــك من نجـــد فمـا لـكم
نجـد ، ومـا لك من غـور به حجـر

وكان هذا الجدل أصلا من أصول المناقضة .

هذه هى أهم خصائص النقائض الأموية (٤٥) .

---

(٤٥) راجع للتفصيل : تاريخ النقائض ، د. أحمد الشايب .

٤ — الرثـــاء

فن قديم قدم الشعر ، إذ أنه مقترن بالموت ، ذلك المصير المحتوم على المخلوقات جميعـا • وهو بكاء الميت ، والتغنى بفضائله ، وإظهار لوعة القلب وحـرقته بفقده ، والأسى لفـراقه ، وبيـان مدى خسـارة القوم – أو الراثى – بوفاته •

وقد كثر الرثاء فى العصـر الأموى ، ومن عيون المـراثى الأموية رثاء جـرير لزوجته ، وهى من أجود شعره ، ولشيوع هذه القصيدة بين النـاس سميت (الجوسـاء) •

يقول جـرير :

لـولا الحيـاء لهـاجنى استعبـــار
ولـزرت قبـرك والحبيب يـزار (١)
ولقـد نظـرت ومـا تمتـع نظـــرة
فى اللحـــد حيث تمـكن المحفـــار
فجـزاك ربـك فى عشـيرك نظـــرة
وسقى صـداك مجلجـل مـدرار (٢)
ولهـت قلـبى إذ علتـنى كبــــرة
وذوو التمـائم من بنيـك صغـار (٣)

---

(١) الاستعبار : جريان الدمع من العين •

(٢) الصدى : العطش أو جثمان الميت وعظـامه ، مجلجـل مدرار : سحابة ذات رعد ومطر كثير •

(٣) الوله : ذهاب العقل واختلاطه • التمائم : العوذ والرقى • ذوو التمائم : كناية عن الأطفال المعلقة التمائم فى أعناقهم •

ارعى النجـوم وقـد مضت غــورية
عصب النجـوم كانهـن صـــوار (٤)

عمـرت مكـرمة المســاك وفارقـت
ما مسهـــا صلـف ولا إقتـــار (٥)

فسقى صـدى جـدث ببرقـة ضــاحك
هـزم أجـش وديمـــة مـــدرار (٦)

كانت مكـرمة العشــــير ولـم يكن
يخشـى غـوائل ام حـزرة جار (٧)

ولقـد أراك كسيت أجمـل منظـــر
ومع الجمـــال سكينـــة ووقـــار

والـريح طيبـــة إذا استقبلتهــــا
والعـــرض لا دنس ولا خـــوار (٨)

وإذا سـريت رايت نـارك نـــورت
وجهـــا اغـــر بزينـــة الإسفـــار (٩)

---

(٤) الغورية : النجوم التى تأخذ نحو الغـرب للغـروب والسقوط . والعصب : الجماعات . الصوار : قطيع البقر الوحشى .

(٥) مكرمة المساك : عزيزة العشرة الزوجية . الصلف : مجافاة الظرف أو بغض الرجل لزوجه .

(٦) الجدث : القبر . الضاحك : نقب بالجبل . هزم أجش : صـوت الرعد فيه بحة لشدته . ديمة مدرار : سحابة ممطرة .

(٧) العشير : الزوج . الغوائل : الدواهى .

(٨) يقصد أن ريحها طيب وعرضها نقى .

(٩) السرى : السير ليلا . الوجه الأغر : المشرق الوضاء . الإسفـار : الإشراق والوضاءة .

كانت إذا هجـر الخليــل فـراشها

خــزن الحـديث وعفـت الأســرار (١٠)

صــلى المـلائكة الذين تخـــيروا

والطيبـــون عليـــك والأبـــرار

وعليــك من صــلوات ربــك كلمــا

شبـح الحجيــج ملبـدين وغـــاروا (١١)

يا نظــرة لك يــوم هــاجت عبـــرة

مــن أم حـــــزرة بالنمـــيرة دار (١٢)

وكــان مــنزلة لهـــا بجــلاجــــل

وحـى الــزبــور تخطـه الأحبــار (١٣)

لا تكـــثرن إذا جعلــت تــلومـــنى

لا يذهبـــن بحلمـــك الإكثـــــار

كان الخليــط هم الخليــط فاصبحـوا

متبـــدلين وبالــديـــار ديـــار

لا يلبث القـــــرناء أن يتفـــرقوا

ليــــل يكـــر عليهــم ونهـــــار

---

(١٠) الحليل : الزوج . خزن الحديث : لا تحدث أحدا بريبة . أى أن هذه الزوجة إذا ما حدث بينهــا وبين حليلها نزاع فإنها لا تبوح بالأسرار وليس عندها إلا العفاف .

(١١) شبح الحجيج : رفعوا أكفهم بالتلبية والدعاء . وفى رواية (نصب الحجيج) .

(١٢) أم حزرة : كنية زوجه .

(١٣) جلاجل : موضع . الأحبار : علماء الدين من اليهود والنصارى.

وقال الفـــرزدق يرثى بنيه :

تمـــنى المستـــزيدة لى المنـــايـا
وهــن وراء مــرتقب الجـــــدور

فــلا وأبى لمـــا أخشـــى ورائـى
مــن الأحـــداث والفـــزع الكبـــير

أجــــل على مــــرزئـة وأدنـــى
إلى يــوم القيــــامة والنشـــور

من البقـــر الذين رزئت خلـــوا
على المضلعــــــات مــن الأمـــور

أما تـــرضـى عـدية دون مـــوتى
بمـا فى القلـب من حـزن الصـدور

باربعـــة رزئتهـــم وكـانــــوا
احـب الميتــــين إلى ضميـــيرى

بنى أصـــــابهم قـــدر المنـــايا
فهـل منهـن مـن أحـــد مجيـــرى

إلى أن يقــول :

ولــو كــان البـــكاء يـرد شيئـــا
على البــاكى بكيـت على صقـــورى

إذا حنـت نـــــوار تهيـــج منـــى
حـــرارة مثــل ملتهـب السعــير

حنــــين الوالهـــين إذا ذكـــرنا
فـؤادينــــا اللذين مع القبـــور

* * *

٥ ـــ الوصــــف

يقول ابن رشيق : « الشعر الا أقـله راجـع إلى باب الوصف ، ولا سبيل إلى حصره واستقصائه » . وذلك : أن الشـاعر يصف أحاسيسه عند فقد عزيز لديه فيكون الوصف رثاء ، ويصف مشـاعره تجاه إنسان يستحق الثنـاء فيكون مديحا ، ويعجب بنفسـه فيصفها فيكون الفخر ، ويحب امـرأة فيتغـزل فيها فيكون الوصف غـزلا ، ويقف على أطلالها فيصفها ... إلخ .

وحين يكون الوصف غرضـا بذاته بين أغـراض الشعر فإنه يعنى به وصف الطبيعـة الصـامتة أو الصـائتة ، كأن يصف حيوانا ، أو يصف حـربا أو مطـرا .. إلخ .

وقد ترسم الشعراء الأمويون خطى الجاهليين فى هذا الفن بخاصة .. وقد قصدوا إلى ذلك ـ أحيانا ـ قصدا ..

هذا الفرزدق يأخذ ألفاظ امرىء القيس فى معلقته ويقول :

وقـوفا بهـا صحـبى على وإنمـــا
عـرفت رســـــوم الدار بعـد تـوهم
يقـولون : لا تهلك أسى ولقـد بـدت
لهـم عبـرات المستهـــــام المتيــم
فقلت لهم : لا تعـــذلونى فإنهــــا
منــازل كـانتَ مـن نـــوار بمعــــلم

وكذلك كان جـرير :

« ويفسـر النقــاد هذه الظاهرة بأن الأمويين وجدوا فى الشعـر

الجاهلى تمثيلا لماضيهم فاصبحوا يعتزون ويشتدون فى رؤيته ، ويسعون إلى تقليده ، وبعضهم يذهب إلى أن حياة البداوة الماضية هى التى ساقت إليهم النصر وملكتهم زمام الفرس والروم ، ولذلك تمسكوا بأهدابها ، وحنوا إليها ، وساعد على ذلك نهوض الرواة وعلماء اللغة إلى البحث عن هذا الماضى الجاهلى وعناية الخلفاء به ، وحبهم له ، فجهد الشعراء فى أن يقلدوه إرضاء للعلماء والخلفاء ٠٠ »(١) ٠

ومن أبرز الوصافين فى عصر بنى أمية (ذو الرمة) الذى أطلق عليه (شاعر الحب والصحراء) ٠

فلم يكن (ذو الرمة) مجرد واصف للصحراء كما كان غيره ، وإنما تميز من بين الشعراء بحبه وعشقه لها ، فهو يصفها وصفا فيه اندماج وطرب ٠٠ وشعره فى هذه الناحية يمكن أن يعد من ذوق جديد فى اللغة العربية ، فالشعراء من قبله كانوا يصفون الصحراء من الخارج - إن صح هذا التعبير - أما ذو الرمة فيصفها من الداخل ، داخل نفسه وروحه إذا كان شديد الحس بها ، بل قل : شديد العشق لها ٠٠ » ٠

« ٠٠ والصحراء فى ديوان ذى الرمة أهم من صاحبته ، فمناظرها ومشاهدها تطغى عليها طغيانا شديدا ، وهو طغيان أراده ذو الرمة وعمد إليه عمدا ٠٠ »(٢) ٠

لقد أحب الصحراء كما أحب الحب ، أحبها حبا جعله يرى الكثبان الرملية صورة من أوراك العذارى :

---

(١) الوصف : سامى الدهان ص ٤٩ ٠
(٢) راجع : التطور والتجديد فى الشعر الأموى ص ٢٥٠ وما بعدها ٠

ورمـل كـاوراك العـــذارى قطعتـــه
إذا جللتـه الملظمـــات الحنـــادس
ركـام تـرى أثبـــاجه حــين تلتقــى
لــه حبـــك لا تختطيـــه الضغـابس(٣)

كما يرى فى أجساد العذارى صورة من كثبان الرمال :

كأن الفـــرند الخســـروانى لثنـــه
بأعطـاف أنقـــاء العقـوق العـوانك
توضعـن فى قـرن الغـزالة بعـد مـا
ترشفـن درات الذهـــاب الـركائك (٤)

* * *

(٣) ركام : متراكم . الأثباج : الأوساط . الحبك : الطرائق . لاتختطيه: لا تجـاوزه . الضغانس : الضعفاء من الناس .

(٤) الفريد : ضرب من الثياب . العقوق : موضع . العوانك : رمـال مشرفة صعبة المسـالك . توضحن : برقن . الذهاب : الأمطـار اللينـة . الركائك : الأمطار القليلة .

٦ ــ الخمــريات

وقد كثر الحديث عن الخمر بعد أن غاب إبان صدر الإســلام ، فهذا القطامى يقول :

وكـأس تمشــى فى العظـــام سبيئــة
من الــراح تعـلو المــاء حتى تـكاثره
كميــت إذا ما شجهــا المــاء صـرحت
ذخـــــائر حــانى عليهـــا ينــاذره

ومن أشهر شعراء الخمريات فى هذا العصر :

الحزين الكنانى ، والأقيشر الأسدى .

وقد باع الأول ما تفضـل به عليه الســادة من فاخر الثياب فى الشـراب ، وأما الثــانى فقد شرب يوما بثيابه حتى انتهت ولم يبـق عليه شىء منها ، ولفظته الحانة بعد أن سلبته ثيابه فى البرد الشديد ..

بل إنه باع ســلاح الحــرب بعد أن فــر من جيش (الحرث بن أبى ربيعــة) الذاهب إلى الشــام ، وشرب بثمن السلاح ، وتغنى بذلك، راضيا عن نفســه ، سعيدا بها ، فيقول :

خـرجت من المصــر الحــوارى أهــله
بلا ندبة فيهــا احتســـاب ولا جعـــل(١)
فازمعــت امــرى ثم اصبحت غـــازيا
وسلمت تسليــم الغـــزاة على اهــلى
وقلـت لعــلى ان ارى ثم راكبـــــا
على فـــرس او ذا متــاع على بغـــل

---

(١) الندبة : التطوع . الجعل : الأجر . الحوارى أهله : لعله يقصد الكوفة وتشيعهم لآل البيت .

جـــوادى حمــار كان حينــا لظهــره
إكــاف واشنـــان المـــزادة والحبـــل(٢)

واشتهر من الشعراء الأمويين بالسكر أيضا ووصف الخمر :

مالك بن أسماء بن خارجة ، وبكر بن خارجة ، وأبو كلدة اليشكرى وأبو الهنــدى(٣) ٠

ونحن حين نتحدث عن شعراء الخمريات فلا يتأتى أن ننسى رائد هذه المدرســة فى العصــر الأمــوى وهو : الوليد بن يزيد ، الشــاعر الفــارس العاشق محب الخمر ٠

وللوليد فى ذكــر الخمــر وسقاتها أشعار كثيرة قد أخذها الشعراء فادخلوها فى أشعارهم وسلخوا معــانيها ، وأبو نواس خاصــة فإنــه سلخ معــانيه كلها وجعلها فى شعره ٠

وتتميز قصــائده فى الخمــر بسهولة اللفظ والمعنى ، والموسيقى الراقصــة ـ فمن ذلك قوله :

عـــللانى واسقيـــانى   من شـــراب اصبهــانى
من شـــراب الشيخ كسرى   أو شـراب القيــروان
إن بالـــكأس لمســـكا   أو بكـفى من سقـــانى
أو لقــد غـــودر فيهـــا   حين صبت فى الــدنان

(٢) الإكاف : البرذعة ٠ الشن : القــربة ٠ المــزادة : إناء يحمــل فيه المــاء ٠

(٣) راجع لذلك : تاريخ الشعر العربى : الجزء الأول ـ الدكتور محمد عبد العزيز الكفراوى ٠

كـــلانى توجــــــانى وبشعـــرى غنيـــانى
إنمــا الــكأس ربيـــع يتعـــاطى بالبنـــات

* * *

وحميـــت الـــكأس دبـــت بين رجـــلى ولسـانى

خصائص الشعر فى العصـر الأمـوى

١ ـ من حيث الموضـوعات :

« تمثل الشعر فى هذا العصر فى ينابيع ثلاثة :

ـــ ينبوع قديم مسته أيدى التعديل مســا رقيقا لم يغير شكله العــام وهو الموضوعات القديمة من مدح وفخر وهجاء ورثاء ووصف .

ـــ وينبوع كان فى العصــر الجاهلى ضيق السعة قريب الغور ، وصار فى العصــر الأموى رحبا متباعد النواحى عميق الغور ، وصــار ماؤه أعذب وأصفى وأغزر ، هو الغزل العذرى .

ـــ أما الينبوع الثالث فإنه جديد فى العصــر الأموى ، وهــو على جدته ثر متدفق ، كأنما كان مطمورا منذ عهد قريب ، ولم تكد الأيدى ترفــع ما غطاه من رمال وأحجار حتى انبجس ماؤه يزيل الرمال والأحجار ، أريد بهذا الينبوع الجديد الشعر القياسى »(٤)

وقـد رأينــا كيف كان التطـوير فى الهجـاء الذى تحـول إلى نقائض أخذت شكلا جديدا يتسم بالسخرية والفكاهة .

.. أما المديح .. فيقول أحد الباحثين (٥) :

« إن القــارىء للشعر فى تلك الفترة باحثــا عن المعــانى والأفكار قد يصاب أحيانا بشىء من خيبة الأمل ، إذ يرى الشــاعر لا يجهد نفسه

---

(٤) أدب السياسة فى العصر الأموى د. أحمد الحوفى ص ٢٦١ .

(٥) د. محمد عبد العزيز الكفراوى : تاريخ الشعر العربى ، الجـزء الأول ص ٣١٦ وما بعدها .

كثيرا فى البحث عن افكار جديدة فهو حين يمدح مثلا قد يأتى بمعان بعضها مأخوذ عن القدماء وبعضها لا يضيف جديدا إلى التراث الإنسانى من الوجهة الاجتماعية والفكرية ، إنه مجرد تمدح بالآباء والأجداد ، فإن ترك ذلك فإلى شىء من أحاديث الشجاعة والكرم ، وليس فيها دائما من حسن العرض ما يرسل فيها الحياة ، وفى سامعيها النشاط والتحمس ٠ فإذا صادفها الحظ ، وأسعفها طبع الشاعر المواتى ، ولغته العذبة ، عاشت على حساب تلك العذوبة ، ونالت بفضلها فقط عناية الدارسين ٠٠

ومن ذلك النوع الأخير قول جرير مادحا هاشم بن عبد الملك :

أمير المؤمنين على صراط
إذا اعوج الموارد مستقيم
أمير المؤمنين جمعت دينا
وحلما فاضلا لذوى الحلوم
لك المتخيران أبا وخالا
فأكرم بالخؤولة والعموم
فيا ابن المطعمين اذا شتونا
ويا ابن الذائدين عن الحريم
سما بك خالد وبنو هشام
إلى العلياء فى الحسب الجسيم

إلخ ٠٠

وقد دارت هذه الأبيات حول الشرف بالآباء والأجداد من معان قديمة ، ولكن عذوبة لفظه ، وجريان ماء الطبع فيه ، تجعلنا نتسامح

مع الشاعر وننسى تقصيره فى جانب المعنى(٦) .

لقد كان الشاعر الأموى ينظر إلى الشعر الجاهلى ويستعير منه كثيرا من الصور ، فهذا الأخطل يقول :

وما الفـرات إذا جاشت غـواربه
فى حـافتيه وفى أوسـاطه العشـر
وزعزعتـه ريـاح الصيف واضطربت
فـوق الجـآجى من آذيـة غـدر
مسحنفـر من جبـال الـروم يستره
منهـا أكافيـف فيهـا دونـه زور
يومـا بأجـود منـه حـين تسـأله
ولا بأجهـر منـه حـين يجتهـر

فهو قد استعار تلك الصورة من النابغة الذبيانى إذ يقول فى مدحه النعمـان :

ومـا الفـرات إذا هـب الـرياح له
تمـرى أواذيـه العبـرين بالـزبد
يمـده كـل واد متـرع لجـب
فيـه ركـام من الينبـوت والخضـد
يظـل من خـوفه المـلاح معتصمـا
بالخيـزرانة بعـد الأيـن والنجد
يومـا بأجـود منـه سيـب نافـلة
ولا يحـول عطـاء اليـوم دون غـد

---

(٦) نفسـه : ص ٣١٨ .

إذ لا ينبغى أن يقال : إن قصيدة المديح « لم تعد تجرى على النمط القديم أو الأسلوب القديم »(٧) ٠

ولم يكن الفرزدق أقل تأثرا بالجاهليين من صاحبه ، وكيف لا يتأثر بالجاهليين وقد تتلمذ على شعرهم كما صرح هو بذلك فى أبياته :

وهب القصائد لى النوابغ إذ مضوا

وأبو يزيد وذو القروح وجرول

ولكن : ليس معنى ذلك إنكار أن هناك بعض الأفكار والمعانى الجديدة التى طرأت على الشعر - حتى التقليدى منه - بامتزاج الأمة العربية مع غيرها من العجم وتأثير الحضارات المختلفة ٠٠ أضف إلى ذلك الخلافات المذهبية والحزبية السياسية التى لم يسبق لها مثيل إذ كان الشعراء يجارون السياسة ٠٠

كما أن الشعر الأموى كان معبرا عن البيئة الأموية ، مصورا لجوانب حياتها وأحداثها ٠ أضف إلى ذلك ما دخل الشعر من معان إسلامية في شتى الأغراض ٠

٢ - من حيث الخيال والتصوير :

- فقد كانت صورهم وأخيلتهم قريبة إلى الشعر الجاهلى ٠٠ واعتمدوا فى التصوير - غالبا - على التشبيه والاستعارة والكناية ٠

وأكثر صورهم قائمة على التشبيه ، وأشعرهم إذا شبه (ذو الرمة) ٠٠ فمن هذه التشبيهات قوله :

---

(٧) التطور والتجديد فى الشعر الأموى : د/ شوقى ضيف ص ١٤٧ ٠

فمـا روضـــة من حـــر نجـد تهللت

عليهـا سمـاء ليـلة والصـبا تسـرى

بهـــا ذرق غض النبـــات وجنـــوة

تعـاورها الأمطـار كفـرا على كفـر

باطيـب منهـا نكهـة بعيد هجعـة

ونشـرا ، ولا وعســاء طيبـة النشـر(٨)

فهو تشبيه تمثيلى ، وقد استغله ذو الرمة ليرسم هـذه الصـورة الجميلة التى يشبه فيهـا أنفاس حبيبته (ميـة) بعد النوم بأنفـاس روضـة خضراء من رياض نجد تنهل فوقها السماء فى ليـلة من ليـالى الربيع الحـالة ، ونسمات الصبا تسرى إليها فتحمـل عطـر زهرها ونباتهـا(٩) .

ومن صـورة الاستعارية قوله :

فلمـا حـدا الليـل النهـار وأسدفت

هـوادى الدجى ما كاد يدنو أصيلهـا

وفيهـا : جعـل الليـل حاديا نشيطا يحدو قافلة النهار الراحلة ، وجعل له أعناقا من الظلمات تمتد فى أثناء هذه الرحلة الغريبة .

ـــ وتأثروا بالقـرآن الكريم والحديث الشريف فى صورهم أيضـا ، وأبرزهم فى ذلك شعراء الخوارج . فهذا شاعرهم يقول :

ونحن بنـو الإســـلام والله ربنـــا

وأولى عبـد الله بالله مـن شـــكر

فهو قريب من معنى الآية الكريمة **(أن إكرمكم عند الله أتقاكم)** .

---

(٨) الذرق : نبت . الكفر : المطر .

(٩) راجع : ذو الرمة شاعر الحب والصحراء ص ٣١٣ .

٣ ـ من حيث الألفـــاظ :

ظل الشعر فى العصـر الأمـوى محـافظا على اللغـة العربيـة وسلامتها من العجمة ، وغلبت البداوة على لغـة الشعر ، وكان هنـاك من الشعراء من كان بدويا خالصـا ٠٠ كذى الرمة مثلا ، هذا الذى أحب الصحراء بل وعشقها ، فعـاش بهـا واكتسب منهـا سليقته اللغـوية وفصاحته البدوية ، وخلصت له لغـة البادية صفية نقية ، وتزود منها بثروة ضخمة من الألفاظ والتراكيب(١٠) ٠

وكذلك ظل كثير من الشعـراء والرجاز يسيطـر عليهم المظهـر الجاهلى ومن هؤلاء الرجاز (رؤبة) الذى يمدح مـروان بن محمـد قائـلا :

وكم جـــلا مـــروان حتى أشـــرقا
من غمـــرات تبلـــغ المخنقـــا(١٠)
فنصـــــر الله بـــه واعتقـــا
فالحمـــد للـــه عـلى مـا وفقـــا
فاجتمـــع الأمـــر لـــه فاستوسقـــا
لفـــا يـدانى بين مـن تفـــرقـا
مـا زال ينـفى المفســـدين البوقـا
ويغتـزى مـن بعـد أفـــق أفقـــا
حـتى اشفـتروا فى البـــلاد أبقـا
قتـــلا وتعـــويقا على مـن عـــوقا
فســـكن الله القـــلوب الخفقـــا
واعتـــاق عنـه الجـاهلين العـــوقا

---

(١٠) راجع : ذو الرمة شـاعر الحب والصحراء د/ يوسف خليف ، ص ٣٦٤ ٠

وما ذلك إلا لأنهم أقاموا بعيدا عن مراكز الحضارة ، ولذا جاءت عباراتهم خشنة غليظة ، ثم لإقبال علماء اللغة والشواهد عليهم ، فشغفوا بالغريب .. وكان ذلك ما يميز الرجاز جميعا .. أما الشعراء فأحيانا يغربون وأخرى يسلسون ويعذبون .

٤ ـ التهذيب والتنقيح :

ولم تنحرف صور التجديد بصناعة الشعر إلى مذهب جديد فى صنع نماذجه ، فقد ظل المذهب مذهب التهذيب والتنقيح الذى لمسناه فى الشعر الجاهلى ، ولكنه نما نموا واسعا ، فقد أقبل الشعراء يبالغون فى الاهتمام بصنعتهم ، ويوفرون لها كل ما يمكن من تجويد وتحبير ، وأعلنوا ذلك فى شعرهم ، فقال ذو الرمة :

وشعر قد أرقت له طريف
أجنبه المساند والمحالا

وقال عدى بن الرقاع :

وقصيدة قد بت أجمع بينها
حتى أقوم ميلها وسنادها
نظر المثقف فى كعوب قناته
حتى يقيم ثقافه منآدها (١١)

* * *

---

(١١) راجع : الفن ومذاهبه فى الشعر العربى ، د/ شوقى ضيف ص ٣٤ ، الخصومات البلاغية والنقدية فى صنعة أبى تمام : د/ عبد الفتاح لاشين ص ٧ ، ط دار المعارف .

الباب الثانى

النثـر فى العصـر الأمـوى

ظـل الشعر فى العصـر الأموى صاحب السيادة ، إلا أن النثـر ازدهــر بصــورة كبيرة ٠٠ وكانت أبرز فنون النثر :

(الخطابة ـ الحوار ـ الكتابة الفنية ـ الوصايا) ٠

أولا : الخطــابة

لمـا كان للخطابة دورها العظيم فى التـأثير فى الجماهير كان لابد من انتعاشها فى عصـر بنى أمية مواكبة للخلافات السياسية الحزبية الواسعـة ، وكانت السـلاح القـولى الذى يعتمـد عليـه السـاسة من الأحـزاب المختلفـة ٠

وكان وراء هذا الازدهار عدة عوامل :

١ ـ تعدد الأحـزاب السياسية التى احتاجت إلى الدعاية والإعلان ، فكان الخطباء بمثابة المتحدثين الرسميين للأحزاب ٠

٢ ـ الشجاعة التى اتصف بها النـاس ولاسيما المنتمون إلى الأحزاب المعارضـة ، فمعظمهم كان لا يبـالى بالحـزب الحاكم ، ولا يعبأ بأسـلوب الترغيب والترهيب الذى سلكه ، فكان الخطباء يعلنون آراءهم بكل جرأة ، وذلك فى إطار الحرية ٠

وقد استغل النـاس ما أعلنه (معـاوية) فى بادىء الأمـر من أنه يسوس النـاس بالحلم وسعة الصدر ، والتجاوز عن الإساءة القولية ، فهـو القـائل : « إن لم يكن إلا مـا يشفى به القـائل بلسـانه ، فقـد

جعلت ذلك له دبر أذنى ، وتحت قدمى »(١) .

٣ - كثرة الحروب والثورات .

فقد كان الثائرون خطباء ، وكان القواد المنوط بهم إخماد الثورات خطباء كذلك ، كما كان القواد الفاتحون ذوى ألسنة فصيحة ، فاتخذ هؤلاء وأولئك الخطابة سلاحا لهم يؤيدهم ويؤازرهم .

٤ - مواهبهم البيانية .

ذلك أن العرب أوتوا موهبة البيان ، والبديهة المسعفة ، والفصاحة المتوارثة ، وكانوا يحرصون على لغتهم وأدبهم حفظا ورواية ، كما اتخذ الخلفاء المؤدبين الذين يعلمون أبناءهم ويربونهم تربية على اللسان العربى الفصيح وأشعار الجاهليين ، فلا غرو أن تجد الخلفاء والولاة على هذا القدر من الفصاحة والبيان فى خطبهم .

*** الخطابة الحزبية :**

إذا كان لكل حزب شعراؤه - كما ذكرنا - فقد كان لكل خطباؤه كذلك ، واشتهر فى كل حزب عدد غير قليل من الخطباء المفوهين .

١ - الحزب الأموى :

كان الخلفاء الأمويون على قدر عظيم من الفصاحة والبيان ، واشتهر من الخلفاء بالخطابة : (معاوية ويزيد وعبد الملك بن مروان ... وغيرهم) .

أما (معاوية) فقد كان ماهرا فى الخطابة ، يصف أحد الشعراء تلك المهارة قائلا :

ركوب المنابر وثابها   معن بخطبته مجهر

---

(١) راجع : الحوفى - دأب السياسة ص ٣٦٤ . دبر أذنى : وراءها أى لم أعره اهتماما كأنى لم أسمعه .

تريـع إليه هوادى الكلام   إذا ضل خطبته المهـذر

وكان يستخدم دهاءه فى خطبه ، يلين تارة ويشتد أخرى ..

كان معـاوية قد أخذ على نفسـه موثقـا أن يولى (الحسن بن على) أمـر المسلمين من بعده ، لكنه نقض العهد ، وولى يزيد ابنه . وزار المدينة وأرغم النـاس على مبايعة يزيد ..

وهنا انبرى (الأحنف بن قيس) – وهو أحد خطباء العلويين – يخطب فى الجموع التى أتت تبايع (يزيد) ..

بعد أن حمد الله وأثنى عليـه قال(٢) :

« يا أمير المؤمنـين ، إنا قد فـررنا عنـك قريشـا ، فوجدناك أكرمها زندا ، وأشدها عقدا ، وأوفاها عهدا ، وقد علمت أنك لم تفتح العـراق عنـوة(٣) ، ولم تظهـر عليـه قعصـا(٤) ، ولكنك أعطيت الحسن بن على عهودا من الله ما قد علمتـه ليكون له الأمـر من بعدك ، فإن تف فأنت أهـل الوفاء ، وإن تغـدر تعلم والله أن وراء الحسـن خيولا جيـادا ، وأذرعا شدادا ، وسيوفا حدادا ، إن تدن منه شبرا من غدر تجد وراءه باعا من نصـر ، وإنك تعلم أن أهل العـراق ما أحبوك منذ أبغضـوك ، ولا أبغضـوا عليـا وحسنا منذ أحبوهما ، وما نزل عليهم فى ذلك خبر من السماء ، وإن السيوف التى شهروها عليك مع على يوم صفين لعلى عواتقهم ، والقلوب التى أبغضوك بها لبين جوانحهم ، وايم الله إن الحسن لأحب إلى أهل العراق من على » .

---

(٢) جمهرة خطب العرب ٢٣٠/٢ .
(٣) عنـوة : قهـرا .
(٤) قعصا : يقال مات قعصا إذا أصابته ضربة أو رمية فمات مكانه .

فقال معــاوية يهدد ويتوعد :

(أيها النــاس : إن لإبليس من النــاس إخــوانا وخــلانا بهــم يستعد ، وإياهم يستعــين ، وعلى السنتهم ينطــق ٠٠ وليسوا أولئــك بمنتهين ولا بمقلعين ، ولا متعظين ، حتى تصيبهم صواعق خزى وبيل ، وتحــل بهم قــوارع أمــر جليل ، تجتث أصولهم كاجتثاث أصول الفقع، فأولى لأولئـك ثم أولى ، فإنا قدمنا وأنذرنا إن أغنى التقدم أو نفــع النــذر) ٠

فقام (يزيد بن المقفع) مناصرا معــاوية وقال :

(أمير المؤمنين هذا ، وأشــار إلى معــاوية ، فإن هلك هذا فهذا وأشــار إلى يزيد ، فمن أبى فهذا ، وأشــار إلى سيفه) ٠

فقــال معــاوية :

(اجلس فانك سيد الخطبــاء) ٠

وخطب بالمدينة سنة ٤١ هـ فقال ـ بعد حمد الله والثناء عليه ـ :

(أما بعد ٠ فانى والله ما وليتها بمحبــة علمتها منكم ، ولا مسرة بولايتى ، ولكنى جالدتكم بسيفى هذا مجالدة ٠

ولقد رضت لكم نفسى على عمل ابن أبى قحــافة ، وأردتها على عمــل عمــر فنفرت من ذلك نفــارا شديدا ، وأردتها على سنيات عثمان فأبت على ٠ فسلكت بها طريقا لى ولكم فيــه منفعــة : مؤاكلة حسنة ، ومشــاربة جميلة فان لم تجدونى خيركم ، فإنى خير لكم ولاية ٠

والله لا أحمــل السيف على من لا سيف له ، وإن لم يكن إلا مــا يستشفى به القــائل بلســانه ، فقد جعلت ذلك له دبر أذنى ، وتحت قدمى ، وإن لم تجــدونى أقــوم بحقكم كله فاقبلوا منى بعضــه ، فإن أتاكم منى خير فاقبلوه ٠ فإن السيل إذا جاد يثرى ، وإذا قل أغنى ٠

وإياكم والفتنة ، فإنها تفسد المعيشة ، وتكدر النعمة » ٠

وكان (معــاوية) مع فصاحته ولسنه وبلاغته النابعــة من قرشيته القريبة ـ يعمد إلى الإيجــاز فى خطبه ٠٠ وقد جعــل خطبتــه على قصرها تحوى المعانى الكبيرة التى أراد أن يعبرّ عنها (٥) ٠

أما (عبد الملك بن مــروان) فكان ممن يمتلكون ناصية البيان ، ولذا كان خطيبا مفــوها ، ولا غــرو فهو صاحب النظــرات النقــدية الفاحصة التى تنبىء عن ملكة نقدية وحاسة فنيةّ مرهفة ٠

حينما قاد بنفســه جيشــاء للقضــاء على (مصعب بن الزبير) والى (عبد الله بن الزبير) على العراق ، كتب له النصر ، وقتل مصعب فى المعــركة دخل (عبد الملك) الكوفة فصعد منبرها ثم قال ـ بعــد أن حمد الله وأثنى عليــه :

« أيهــا النــاس : إن الحــرب صعبة مــرة ، وإن السـلم أمــن ومسرة ، وقد زبنتنا الحرب وزبناها ، فعرفناها وألفناها ، فنحن بنوها وهي أمنــا ٠

أيها النــاس : فاستقيموا على سبل الهدى ، ودعــوا الأهــواء المــردية ، وتجنبوا فــراق جمــاعات المسلمــين ، ولا تكلفونا أعمــال المهاجرين الأولين وأنتم لا تعملون أعمالهم ، ولا أظنكم تزدادون بعــد الموعظــة إلا شرا ، ولن نزداد بعد الإعــذار إليكم والحجــة عليكم إلا عقــوبة ، فمن شــاء منكم أن يعــود بعد لمثلهــا فليعد ، فإنمــا مثــلى ومثلكم كما قال قيس بن رفاعة :

---

(٥) الأدب فى موكب الحضــارة : ص ٢٤٠ ٠

من يصـــل ناري بـلا ذنب ولا تـرة
يصـل بنـــار كــريم غـير غـــدار (٦)
أنا النـــذير لكم مـنى مجـاهـــرة
كى لا ألام عـلى نهـــى وإنـــــذار
فإن عصيتـم مقـــالى اليـوم فاعترفوا
أن سـوف تلقـون خـزيا ظـاهر العار
لترجعـــن أحـاديثـــا ملعنــــة
لهـو المقـيم ولهـــو المـدلج الســـارى (٧)
مـن كـان فى نفســه حوجـاء يطلبها
عنـــدى فـإنى لـه رهـــن بإصحـــار (٨)
أقيـم عرجتـــه إن كـان ذا عــــوج
كما يقـــوم قـدح النبعـــة البـــارى
وصـاحب الوتر ليس الدهـــر مدركـه
عنــــدى وإنى لـدراك بأوتـــــار

وحـرص خلفـاء بنى أميـة أن يتحقـق فيمن يختـارونهم ولاة وعمالا عدة خصـال منها : الجـرأة والإقدام والشجاعة ،و من الصفات الأساسية : الفصـاحة واللبـاقة والفطنـة والكياسـة والدهـاء وحسـن السيـاسة ٠٠ إلخ ٠

ولذا لا تعجب حين تجد كل الولاة خطبـاء مفوهـين ، دهاة ،

---

(٦) ترة : ظلم ٠

(٧) المدلج : السـائر آخـر الليـل ٠

(٨) الحوجاء : الحاجة ٠ الإصحار : البروز إلى الصحراء ٠ والمعنى : أنه لا مانع أو حاجب بيني وبينه ٠

سـاسة ... ولعل من أبرزهم الطاغية (الحجاج بن يوسف الثقفى) ..

خـرج الحجاج يريد العـراق واليـا عليها فى اثنى عشـر راكبا على النجائب حتى دخـل الكوفة فجاة حين انتشـر النهار .. ، فبدأ بالمسجد فدخله ، ثم صعد المنبر وهو ملثم بعمـامة خز حمراء ، حجبت أكثر وجهه ، متقلدا سيفا ، متنكبا قوسا ، وسكت ساعة لا يتكلم .

فقال الناس بعضهم لبعض : قبح الله بنى أميـة حيث تستعمـل مثـل هذا على العـراق ، حتى قال عمير بن ضابىء البرجمى : ألا أحصبه لكم !! فقالوا : تمهل حتى ننظـر .

فلما رأى الحجاج عيون النـاس إليـه ، حسر اللثام عن فمـه ونهض فقال :

انا ابن جـلا وطـلاع الثنـايا

متى أضـع العمـامة تعـرفونى(٩)

أما والله إنى لأحتمل الشـر بحمله . وأحذوه بنعله ، وأجـزيه بمثله . وإنى لأرى رءوسا قد أينعت وحـان قطافها ، وإنى لصاحبها ، وإنى لأنظر إلى الدماء ترقرق بين العمائم واللحى .

قـد شمـرت عن سـاقها فشمـرا

ثم قـال :

هـذا أوان الشـد فاشتـدى زيـم

لقـد لفهـا الليـل بسـواق حطـم(١٠)

---

(٩) من قصيدة لسحيم بن وثيل الرياحى ، وهى فى الأصمعيات . ابن جلا : أى مشهور . طلاع الثنايا : أى جلد قـوى أكثر طـلوع طـرق الجبـال .

(١٠) زيم : اسم لفـرس أو ناقة . الشد : العـدد . السواق الحطـم : الظـلوم .

ليس براعي غنم ولا ابل

ولا بجزار على ظهر وضم(١١)

وقال ايضا :

قد لفها الليل بعصلبي

اروع خراج من الدوى(١٢)

مهاجر ليس باعرابي(١٣)

إني والله يا أهل العراق ، والشقاق والنفاق ، ومساوىء الأخلاق ما أغمز تغماز التين ، ولا يقطع لى بالشنان(١٤) ، ولقد فررت عن ذكاء(١٥) ولقد فتشت عن تجربة ، وجريت من الغاية ، وإن أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه - نثر كنانته(١٦) بين يديه ، فعجم عيدانها(١٧) ، فوجدني أمرها عوداً ، وأصلبها مكسرا ، فرماكم بي ، لأنكم طالما أوضعتم(١٨) فى الفتن ، واضطجعتم فى مراقد الضلال ، وسننتم سنن الغى ، أما والله لألحونكم لحو العصا(١٩) ،

---

(١١) وضم : الخشبة التى يقطع عليها اللحم أو كل ما كان كذلك .

(١٢) عصلبى : شديد . الأروع : الذكى الشجاع ، وقيل هو الذى يروعك حسنه ، الدوى : المفازة المهلكة .

(١٣) ليس باعرابى : أى ليس في سذاجة الأعرا بالبدو .

(١٤) الشنان : جمع شن ، وهى القربة البالية ، وكانوا يحركونها إذا استحثوا الإبل للسير لتفزع فتسرع .

(١٥) فررت : أى اخترت .

(١٦) نثر كنانته : جعبة سهامه .

(١٧) عجم العود : عضه ليعرف صلابته .

(١٨) أوضعتم : أسرعتم . (١٩) لحا العصا : قشرها .

ولأقرعنكم قرع المروة(٢٠) ، ولأعصبنكم عصب السلمة(٢١) ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل(٢٢) ، فإنكم لكأهل **« قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون »** وإنى والله لا أعد إلا وفيت ، ولا أهم إلا أمضيت ، ولا أخلق(٢٣) إلا فريت(٢٤) ، فإياى وهذه الشفعاء والزرافات والجماعات ، وقال وقيل وما تقول ! وفيم أنت وذاك .

أما والله لتستقيمن على الطريق الحق أو لأدعن لكل رجل منكم شغلا فى جسده ، وإن أمير المؤمنين أمرنى بإعطائكم أعطياتكم، وأن أوجهكم لمحاربة عدوكم مع المهلب بن أبى صفرة ، وإنى أقسم بالله لا أجد رجلا تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا سفكت دمه ، وأنهبت ماله ، وهدمت منزله »(٢٥) ..

والحجاج فى خطبته هذه يرهب ويهدد ويتوعد ، وهذا ما اقتضاه المقام ، ذلك لأن أهل العراق لم يستجيبوا لبنى أمية ، وأيدوا عليا ثم الخوارج ، ثم بايعوا ابن الزبير .. ولذا فقد عمد إلى أسلوب الشدة كما رأيت .

وإذا كان الحجاج خطيبا مفوها ، واشتهر ذلك عنه ، وأثرت عنه

---

(٢٠) المروة : حجارة بيضاء تخرج الشرر عند قدحها .

(٢١) السلمة : شجرة كثيرة الشوك .

(٢٢) أى الابل الغريبة التى تدخل وسط قطيع غير قطيعها فتشرب الماء وهناك تضرب ضربا شديدا .

(٢٣) أخلق : أقدر . (٢٤) فريت : قطعت .

(٢٥) البيان والتبيين ٣٠٧/٢ - ٣١٠ ، والعقد الفريد .

عبــارات كثيرة « فهنــاك من يمكن أن يعتبر أحيــانا أخطب منــه ، وأرسى وأعقــل ، وأسبــق ، وهــو زياد بن أبى سفيــان الذى عــرف باسم(٢٦) زياد بن أبيــه(٢٧) » .

ولد فى عام الهجــرة أو قبله بقليــل لجارية فارسية كانت لطبيب العرب الشهير : الحارث بن كلدة الثقفى .

وفى عهــد عمــر ، نسبه أبو سفيــان إلى نفســه .. خــرج مع الجيوش الغــازية فى الشرق .. وعــرف عنه الذكاء والفصاحة .. أشهر ما له خطبته المسماة بـ (البتراء) .

وإذا كان قد أبدع فى خطــابته السياسية فهــو كذلك أيضــا فى خطابته الدينيــة ، وهذه إحدى خطبه - يقال إن عبد الملك بن مــروان كتبهــا بيده :

« إن الله عز وجل جعــل لعباده عقولا عاقبهم بها على معصيته ، وأثابهم بها على طاعتــه ، فالنــاس بين محسن ببنعمــة الله ، ومسىء بخذلان الله إياه . ولله النعمــة على المحسن ، والحجــة على المسىء ، فما أولى من تمت عليــه النعمــة فى نفســه ورأى العبرة فى غيره أن يضــع الدنيــا بحيث وضعها الله ، فيعطى ما عليــه منها ولا يتكثر مما ليس له فيهــا ، فإن الدنيــا دار فنــاء ، ولا سبيــل إلى بقائها ، ولابد من لقــاء الله عز وجل ، فأحذركم الله الذى حذركم نفســه ، وأوصيكم بتعجيل ما أخــرته العجــزة قبــل أن تصــيروا إلى الدار التى صــاروا إليهــا ، فلا تقدروا على توبة ، وليست لكم منها أوبة » .

---

(٢٦) الأدب فى موكب الحضــارة : ص ٢٥٢ .

(٢٨) راجع : أسد الغابة ، طبقات ابن سعد ، المعارف لابن قتيبة .

٢ - خطب الشيعة :

قال الحسين بن على يخطب فى أصحابه وأصحاب الحر بالبيضة(٢٩) بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

أيها الناس - إن رسول الله - ﷺ - قال : من رأى سلطانا جائرا مستحلا لحرم الله ، ناكثا بعهد الله ، مخالفا لسنة رسول الله - ﷺ -، يعمل فى عباده بالإثم والعدوان ، فلم يغير عليه بعقل ولا قول ، كان حقا على الله أن يدخله مدخله .

ألا وإن هؤلاء(٣٠) قد لزموا طاعة الشيطان ، وتركوا طاعة الرحمان وأظهروا الفساد ، وعطلوا الحدود ، واستأثروا بالفىء(٣١) ، وأحلوا حرام الله ، وحرموا حلاله ، وأنا أحق من غير .

وقد أتتنى كتبكم ، وقدمت رسلكم ببيعتكم ، أنكم لا تسلمونى(٣٢) ولا تخذلونى ، فإن تممتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم .

وأنا الحسين بن على ، وابن فاطمة بنت رسول الله - ﷺ - نفسى مع أنفسكم ، وأهلى مع أهليكم ، فلكم فى أسوة ، وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدكم ، وخلعتم بيعتى من أعناقكم ، فلعمرى ما هى لكم بنكر . لقد فعلتموها بأبى وأخى وابن عمى مسلم . والمغرور من اغتر بكم ، فحظكم أخطأتم ، ونصيبكم ضيعتم ، ومن نكث فإنما ينكث على نفسه وسيغنى الله عنكم . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته(٣٣) .

---

(٢٩) الحر : هو ابن يزيد التميمى القائد الذى بعثه عبيد الله بن زياد ليقبض على الحسين .

(٣٠) يقصد بنى أمية .

(٣١) أى الخراج .

(٣٢) أى تخذلونى .

(٣٣) راجع : أدب السياسة فى العصر الأموى ، د/ أحمد الحوفى : ص ٣١٣ ، والأدب فى موكب الحضارة : ٢٧٣ .

وخطب (عبد الله بن جعفر بن أبى طالب) وذلك لما أراد معاوية أخذ البيعة لابنه يزيد فعارض عبد الله قائلا ـ بعد حمد الله ـ :

« إن هذه الخلافة إن أخذ فيها بالقرآن ، فأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله، وإن أخذ فيها بسنة رسول الله، فأولو رسول الله ، وإن أخذ بسنة الشيخين أبى بكر وعمر ، فأى الناس أفضل وأكمل وأحق بهذا الأمر من آل الرسول ؟

وايم الله لو ولوه بعد نبيهم ، لوضعوا الأمر موضعه ، لحقه وصدقه ، ولأطيع الله ، وعصى الشيطان ، وما اختلف فى الأمة سيفان . فاتق الله يا معاوية ، فإنك قد صرت راعيا ونحن رعية ، فانظر لرعيتك فإنك مسئول عنها غدا .

وأما ما ذكرت من ابنى عمى ، وتركك أن تحضرهما ، فوالله ما أصبت الحق ، ولا يجوز لك ذلك إلا بهما ، وإنك لتعلم أنهما معدن العلوم والكرم ، نقل أو دع . واستغفر الله لى ولكم » .

ولما قتل الحسين أخذ الشيعة يحرضون على الثأر له وهذه خطبة محمد بن الحنفية فى جمع من أصحاب المختار بن أبى عبيد :

قال بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

« أما بعد : فأما ما ذكرتم مما خصنا الله به من فضل ، فإن الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، فلله الحمد . وأما ما ذكرتم من مصيبتنا بحسين ، فإن ذلك كان فى الذكر الحكيم ، وهى ملحمة كتبت عليه ، وكرامة أهداها الله له ، رفع بما كان مهنا درجات قوم عنده ، ووضع بها آخرين ، وكان أمر الله قدرا مقدورا .

وأما ما ذكرتم من دعاء من دعاكم إلى الطلب بدمائنا ، فوالله لوددت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه .

أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم .

٣ ــ خطب الخوارج

ومعظم خطبهم تدور حول الحث على الجهاد ..

(أ) يقول أحدهم وهو (حيان بن ظبيان) فى جمع منهم حاثا على الجهاد :

بعد أن حمد الله وأثنى عليه قال :

« أما بعد فإن الله عز وجل كتب علينا الجهاد ، فمنا من قضى نحبه ، ومنا من ينتظر ، وأولئك الأبرار الفائزون بفضلهم . ومن يكن منا ينتظر فهو من سلفنا القاضين نحبهم ، السابقين بإحسان ، فمن كان منكم يريد الله وثوابه ، فليسلك سبيل أصحابه وإخوانه ، يؤته الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة ، والله مع المحسنين » .

وهى خطبة تتميز بالإيجاز ، مناسبة للمقام ، إذ أن كثرة الكلام ينسى بعضه بعضا ، وهو يريد أن يبقى عبارات معدودة فى أذهان المخاطبين .

وهو متأثر - ككل الخوارج - بالقرآن الكريم فى المعانى وفى بعض التعابير مثل : منا من قضى نحبه ومنا من ينتظر ، يؤته الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة .

٤ - خطب الزبيريين :

ذهب معاوية إلى الحجاز ، ليكره الناس على مبايعة ابنه يزيد فعارضه عبد الله بن الزبير قائلا - بعد حمد الله والثناء عليه - :

« إن هذه الخلافة لقريش خاصة ، فاتق الله يا معاوية ، وأنصف من نفسك ، فإن هذا عبد الله بن عباس ابن عم رسول الله - ﷺ - ، وهذا عبد الله بن جعفر ذى الجناحين ، ابن عم رسول الله - ﷺ -

وأنا عبد الله بن الزبير ابن عمة رسول الله - ﷺ - على خلف حسنا وحسينا ، وأنت تعلم من هما ٠

فاتق الله يا معاوية ، وأنت الحاكم بيننا وبين نفسك ٠٠ »

والإيجاز واضح فى الخطبة ، وهى مرتجلة لا تكلف فيها ٠ ولا تعقيد ولا التواء ٠٠

وقال عبد الله لما بلغة قتل أخيه مصعب سنة ٧١هـ :(٣٤)

« الحمد لله الذى له الخلق والأمر ، وملك الدنيا والآخرة ، يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ، ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء ٠

أما بعد فإنه لم يعز الله من كان الباطل معه ، وإن كان معه الأنام طرا ؛ ولم يذل من كان الحق معه ، وإن كان مفردا ضعيفا ٠

ألا وإنه قد أتانا خبر من العراق ، بلد الغدر والشقاق ، فساءنا وسرنا ٠ أتانا أن مصعبا قتل رحمة الله عليه ومغفرته ، فأما الذى أحزننا من ذلك ، فإن لفراق الحميم لذعة ولوعة يجدها حميمه عند المصيبة ، ثم يرعوى من بعد ذو الرأى والدين إلى جميل الصبر وكريم العزاء ٠

وأما الذى سرنا منه ، فإنا قد علمنا أن قتله شهادة له ، وأنه عز وجل جاعل لنا وله فى ذلك الخيرة إن شاء الله تعالى ٠

أسلمه الطغام(٣٥) الصم الآذان ، أهل العراق ، إسلام النعم المخطمة(٣٦) ، وباعوه بأقل من الثمن الذى كانوا يأخذون منه ،

---

(٣٤) الأغانى ١٦٦/٧ ٠

(٣٥) الطغام : الأوغاد ٠

(٣٦) المخطمة : أى التى خطمت كما يخطم البعير بوضع ما يقاد به فى أنفه ٠

فإن يقتل فقد قتل أبوه وعمه وأخوه(٣٧) ، وكانوا الخيار الصالحين ·

إنا والله لا نموت حتف آنافنا(٣٨) ، ولكن قعصا(٣٩) بالرماح ، موتا تحت ظلال السيوف ، ليس كما يموت بنو مروان ·

والله ما قتل منهم رجل فى زحف فى جاهلية ولا إسلام قط · الا وإنما الدنيا عارية من الملك القهار الذى لا يزول سلطانه ، ولا يبيد ملكه فإن تقبل الدنيا على لم آخذها أخذ الأشر البطر(٤٠) ، وإن تدبر عنى لم أبك عليها بكاء الخرق(٤١) المهين ·

اقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم

خصائص الخطابة فى عصر بنى أمية

بعد أن سقنا عددا من الخطب لكل حزب من الأحزاب على حدة رأينا أن الخطب بعامة تشترك فى عدة خصائص من أهمها :

١ ـ من حيث الاستهلال : بدئت الخطبة بحمد الله والثناء عليه والصلاة والسلام على رسوله ·· وتكاد تكون كل الخطب كذلك فيما عدا خطبة « زياد بن أبيه » ومن هنا اشتهرت بالبتراء ·

---

(٣٧) أما أبوه فقد قتل بعد وقعة الجمل ، وأما عمه عبد الرحمن فاستشهد يوم اليرموك ، وأما أخوه المنذر بن الزبير فقد مات فى مبارزة سنة ٦٤/ راجع الأدب فى موكب الحضارة ص ٢٦٨

(٣٨) مات حتف أنفه : أى على سريره دون قتل ، وسمى كذلك هذا النوع لأن العرب كانوا يتصورون أن روح تخرج من أنفه ·

(٣٩) قعصا : ضربا أو رميا يميت بسرعة ·

(٤٠) الأشر البطر : المتكبر المغرور ·

(٤١) الخرق : المدهوش المبهوت أو المهين الحقير ·

وهناك من الخطباء من بدأ خطبته بأبيات من الشعر فيه تهـديد ووعيـد .. كخطبة الحجاج التى أسلفناها .

وقد تبـدأ الخطبة بدون حمد أو بسملة وخاصة إذا كانت ردا على خطبة أخرى أو معـارضة لها ..

٢ - من حيث التعبيـر فيتسـم بـ : قـوة العبـارة وحرارتها ، لأنها تعبر عن مشـاعر مهتاجة ، ونفوس ثائرة حانقة مثل قول على - كـرم الله وجهـه :

« أبيتهم على إباء المخالفين الجفـاة ، والمنابذين العصاة ، حتى ارتاب الناصح بنصحه ، وضن الزند بقدحه » .

- قصر الجمل ، والعناية بالجـرس اللفظى ، والإيقاع الصـوتى ممثلا فى السـجع ، مثال ذلك :

قـول الحجاج : « إن للشيطان طيفـا ، وللسـلطان سـيفاً ، فمن سقمت سريرته ، صحت عقوبته ، ومن وضعه ذنبه ، رفعه صلبه ... »

- الإيجاز البليغ غير المخل وغير المتناهى فى القصر .

٣ - التأثر بالقرآن الكريم . اقتباسا ، أو استمداداً للمعـانى .

فقـد افتنوا فى وضع آيات أو أجزاء مَن آيات من القرآن الكـريم فى مواضعها من الخطب ، وهذا إن دل فإنما يدل على تذوقهم وفهمهم للقرآن فلم يجـدوا أبلغ من آياته للتعبير عما يجـول بأذهانهم ، ثم إن تأثير آيات القرآن عظيم فى نفوس السامعين .

يقول الجـاحظ :

« وكانوا يستحسنون أن يكون فى الخطب يوم الحفل وفى الكـلام يوم الجمع آى من القرآن ، فإن ذلك ممـا يورث الكـلام البهاء والوقار والرقة وسلس الموقع ..

حتى الحجاج بن يوسف - وهو من هو طغيانا - يستشهد بالقرآن كثيرا ، فقد قال فى خطبته لأهل العراق « .. فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان ... الآية » ..

ولم يكتفوا بالاقتباس بل استلهموا واستمدوا معاينة من ذلك قول معاوية مثلا :

« إن الله لا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه » فهو معنى قوله تعالى **(والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب)** وقوله تعالى **(حتى يقضى الله أمرا كان مفعولا)** .

على أن أكثر الخطباء اقتباسا واستمدادا للمعانى من القرآن هم خطباء الخوارج فالشيعة فالزبيريين .. وقل ذلك فى خطب الأمويين ما عدا الحجاج .

٤ - الاستشهاد بالشعر .

وكانوا يبدأون به خطبهم أحيانا كما قال الحجاج :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا
متى أضع العمامة تعرفونى

وكان الشعر فى ذلك العصر لا تزال له مكانته العظيمة ، وكان معظمهم يحفظون كثيرا منه ، فيتمثلون به ، أو يستمدون منه المعانى .

٥ - إثارة العواطف وشحن النفوس .

ومثال ذلك ما جاء فى قول « طارق بن زياد » حين أحرق السفينة وخطب فى جنده :

« أين المفر . البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر . واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من الأيتام فى مأدب اللئام .. » .

٦ - التخييل والتصوير :

وقد أكثروا من الأساليب البيانية تشبيها واستعارة وكناية فمن تشبيهاتهم : قول الحجاج فى خطبته التى ذكرناها :

« والله لأحزمنكم حزم السلمة ، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل »

ومن الإستعارة قوله :

« إنى لأرى رءوساً قد أينعت وحان قطافها ، وإنى لصاحبها »

ومن الكناية قول معاوية :

« إن لم يكن ما يستشفى به القائل بلسانه فقد جعلت ذلك له دبر أذنى ، وتحت قدمى » .

ثانيا : الحوار

« الجدل ، وسعة المعرفة ، وسرعة البديهة ، ولمحة الفطنة ، وبراعة الرد ، وحسن التخلص .. كل ذلك كان مما تميز به العربى خاصة إذا وقع فى مأزق فى ساحة حاكم ، أو دفعته المقادير راغماً إلى حضرة والى ظالم ، ولعل أكثر المحاورات طرافة وإمتاعا تلك التى كانت تجرى بين الحجاج بن يوسف ومن دفعت بهم المقادير إلى ساحته ، وهو الوالى الظلوم الغشوم الذى قلما سلم متعرض له من ضربة سيف تطيح برأسه »(٤٢) .

وقد ذاع هذا النوع من النثر الشفهى فى العصر الأموى نتيجة للخلافات السياسية والحزبية كما عرفت .

وهذا اللون النثرى شبيه بالمفاخرات والمنافرات التى انتشرت فى العصر الجاهلى . ولعل من أشهر هذه المحاورات ما جرى بين « الحجاج وسعيد بن جبير »(٤٣) .

---

(٤٢) الأدب فى موكب الحضارة ص ٣١٠

(٤٣) وفيات الأعيان لابن خلكان ٢٠٥/١ - ٢٠٦

وكان « سعيد بن جبير » قد خرج على الخليفة مع « عبد الرحمن بن محمد الأشعث » ، فلما قتل عبد الرحمن وانهزم أصحابه من دير الجماجم هرب سعيد فلحق بمكة ، وكان واليها يومئذ « خالد القسرى » فبعث بسعيد إلى الحجاج ٠

قال له الحجاج : ما اسمك ؟

قال : سعيد بن جبير

قال : بل أنت شقى بن كسير

قال : بل أمى كانت أعلم باسمى منك

قال : شقيت أنت وشقيت أمك

قال : الغيب يعلمه غيرك

قال : لأبدلنك بالدنيا ناراً تلظى

قال : لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلهاً

قال : فما قولك فى محمد ؟

قال : نبى الرحمة وإمام الهدى

قال : فما قولك فى علي ، أهو فى الجنة أو هو فى النار ؟

قال : لو دخلتها وعرفت من فيها عرفت أهلها

قال : فما قولك فى الخلفاء ؟

قال : لست عليهم بوكيل

قال : فأيهم أعجب إليك ؟

قال : أرضاهم لخالقهم

قال : فأيهم أرضى للخالق ؟

قال : علم ذلك عند الذى يعلم سرهم ونجواهم

قال : أحب أن تصدقنى

قال : إن لم أحبك لم أكذبك

قال : فمــا بالك لــم تضــحك ؟

قال : وكيف يضحك مخلوق خلق من طين ، والطين تاكله النار !!

قال : فلما بالنا نضــحك ؟

قال : لــم تســتو القلــوب ٠

ثم أمر الحجاج باللؤلؤ والزبرجـد والياقــوت فجمعــه بين يديه ، فقال سـعيد : إن كنت جمعت هـذا لتتقى به فزع يوم القيامة فصالح ، وإلا ففزعــة واحــدة تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، ولا خير فى شىء جمع للدنيا إلا ما طاب وزكا ٠

ثم دعــا الحجاج بالعــود والناى ، فلما ضرب بالعود ونفخ بالناى بكى ســعيد ٠

فقــال : ما يبكيــك هو اللعب ؟

قال سـعيد : هو الحزن ، أما النفخ فذكرنى يوما عظيمــا ، يوم النفخ فى الصــور ، وأما العود فشـجرة قطعت فى غيــر حق ، وأمــا الأوتار فمن الشــاء تبعث معها يوم القيامة ٠

قال الحجاج : اختر يا ســعيد أى قتلة أقتلك ؟

قال : اختر لنفســك يا حجاج ، فوالله لا تقتلنى قتلة إلا قتلك الله مثلها فى الآخــرة ٠

قال : أفتريد أن أعفــو عنك ؟

قال : إن كان العفو فمن الله ، وأما أنت فلا براءة لك ولا عــذر ٠

قال الحجاج : اذهبــوا به فاقتلوه ٠

فلما خرج ضحك ٠ فأخبر الحجاج بذلك فرده ، وقال : ما أضحكك؟

قال : عجبت من جرأتك على الله وحلم الله عليك ٠

فأمر بالنطع وقال : اقتلــوه ٠

فقال سعيد : وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ٠

قال : وجهوه لغير القبلة ٠

قال سعيد : فأينما تولوا فثم وجه الله ٠

قال : كبوه لوجهه ٠

قال سعيد : منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى ٠

قال الحجاج : اذبحوه ٠

قال سعيد : أما إنى أشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، خذها منى حتى تلقانى بها يوم القيامة ٠

ثم دعا سعيد فقال : اللهم لا تسلطه على أحد يقتله بعدى ٠٠٠

* * *

وتحاور عبد الله بن عباس - نائبا عن على بن أبى طالب - مع الخوارج هذا الحوار :

- ابن عباس : ما الذى نقمتم على أمير المؤمنين ؟

الخوارج : قد كان للمؤمنين أميرا ، فلما حكم فى دين الله خرج من الإيمان ، فليتب بعد إقراره بالكفر نعد له ٠

- ابن عباس : لا ينبغى لمؤمن لم يشب إيمانه شك أن يقر على نفسه الكفر ٠

الخوارج : إنه قد حكم ٠

- ابن عباس : إن الله عز وجل قد أمرنا بالتحكيم فى قتل صيد ، فقال عز وجل « يحكم به ذوا عدل منكم » فكيف فى إمامة قد أشكلت على المسلمين ؟

الخوارج : إنه قد حكم عليه فلم يرض ٠

- ابن عباس : إن الحكومة كالإمامة ، ومتى فسق الإمام وجبت معصيته ، وكذلك الحكمان لما خالفا نبذت أقاويلهما .

الخوارج بعضهم لبعض : لا تجعلوا احتجاج قريش حجة عليكم ، فإن هذا من القوم الذين قال الله عز وجل فيهم : « **بل هم قوم خصمون** » وقال عز وجل فيهم « **وتنذر به قوما لدا** » .

* * *

أهم خصائص الحوار بعامة (٤٤) .

١ - الإيجاز ، مع قوة العبارة ، والمهارة فى التصوير .

٢ - قلب حجة الخصم حجة عليه .

٣ - حسن التخلص .

ثالثا : الكتابة

أخذت الكتابة فى العصر الأموى تنتشر شيئا ما ، وعرفوا من خلال اتصالهم بالأعاجم فكرة الكتاب وأنه صحف يضم بعضها إلى بعض فى موضوع معين .

واستغلوا معرفتهم بالكتابة فى تدوين أخبار الآباء والأجداد فى الجاهلية ، ومن ثم كثر بينهم النسابون وأصحاب الأخبار .

وانتشر التدوين بصورة خاصة فى الكوفة مما أتاح الفرصة لمثل حماد الرواية وغيره أن يحملوا مادة غزيرة من الشعر الجاهلى وما يتصل بأيام العرب .. الخ .

واهتم القوم بتدوين رسائلهم السياسية والوعظية والشخصية .. وقد زخرت كتب الأدب بكتابات ورسائل الأحزاب المختلفة التى ذكرناها ، فمن ذلك ما كتبه الحجاج إلى قطرى بن الفجاءة :

---

(٤٤) راجع للاستزادة / أدب السياسة ص ٣٨٥ وما بعدها .

(بسـم الله الرحمن الرحيم · من الحجاج بن يوسـف إلى قطرى بن الفجاءة · سـلام عليك ، المـوحد الله ، والمصلى عليه محمد عليه السـلام ·

أما بعـد ، فإنك كنت أعرابياً بدوياً ، تسـتطعم الكسرة ، وتخف إلى التمرة ، ثم خرجت تحاول ما ليس لك بحق ، واعترضت على كتاب الله ، ومرقت من سنة رسول الله - ﷺ - فالمرجع عما انت عليه بما زين لك ، وادعنى ، فقـد آن لك) ·

فرد عليه قطرى بقوله :

(بسم الله الرحمن الرحيم · من قطرى بن الفجاءة إلى الحجـاج ابن يوسـف ، سـلام على من اتبع الهـدى · ذكرت فى كتابك أنى كنت بدويا أستطعم الكسرة ، وأبدر(٤٥) إلى التمرة ، والله لقـد قلت زوراً ، بل الله بصرنى من دينـه ما أعماك عنه ، إذ أنت سائح فى الضـلالة ، غرق فى غمرات الكفـر ·

وذكرت أن الضرورة طالت بى فهـلا برز لى من حـزبك من نال الشـبع واتكأ فاتدع(٤٦) ·

أما والله لئن أبرز الله لى صـفحتك ، وأظهر لى صـلعتك(٤٧) ، لتنكرن شبعك ، ولتعلمن أن مقارعة الأبطال ليس كتسطير الأمثال) ·

وكان الخلفاء قبل عبد الملك بن مروان يسكتبون غير العرب على ديوان الخراج ، حتى جـاء عبد الملك فعرب الكتابة ، وأصبحت الكتابة منذ ذلك الحين باللغة العربية ·

---

(٤٥) أبدر : أسرع ·
(٤٦) اتدع : سـكن وهـدأ وتنعـم ·
(٤٧) صلعتك : أى مكان الصـلع من الرأس ·

وأخـذ الموالى ينافسـون العرب فى الكتابة وبلغـوا فى ذلك شأوا بعيـدا ، حتى إن « سالمـا » مـولى هشـام بن عبد المـلك هو منشىء المدرسـة الأولى للكتـابة الفنيـة العربيـة ، تلك التى تخـرج عليهـا « عبد الحميد الكـاتب » ..

صحيح أن هناك كتابة فنية سـابقة على عبد الحميد كما أسلفنا ، إلا أنها كانت تميل إلى الإيجاز البليغ ، بعيـدة عن محـاولة الصـنعة والتأنق .

فلما جـاء « عبد الحميد الكاتب » جـدد فيها تجديدا كبيرا حتى قال بعضـهم :

بدئت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد ...

ويبدو فى العبارة بعض المبالغـة ، إلا إذا كان المقصـود أن أول من امتهن تلك المهنة عبد الحميد ولذلك اشتهر بـ « الكاتب » .

كتب إلى أهله وهـو منهزم مع مروان بن محمد :

« أما بعد فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور ، فمن سـاعده الحظ فيها سـكن إليها ، ومن عضـته بنابها ذمها سـاخطا عليها ، وشكاها مستزيداً لهـا .

وقد كانت أذاقتنا أفاويق استحليناها،ثم جمحت بنا نافرة،ورمحتنا مولية ، فملح عذبها ، وخشن لينها ، فأبعدتنا عن الأوطان ، وفرقتنـا عن الإخوان ، فالدار نازحـة ، والطير بارحـة .

وقد كتبت والأيام تزيدنا منكم بعدا ، وإليكم وجـدا ، فإن تتـم البليـة إلى أقصى مدتها يكن آخـر العهد بكم وبنا ، وأن يلحقنا ظفـر جارح من أظفار من يليكـم نرجع إليكـم بذل الإسار ، والذل شر جار . نسأل الله أن يعز من يشـاء ، ويذل من يشـاء ، أن يهب لنا ولكم ألفـة

جامعـة ، فى دار آمنـة ، تجمـع سـلامة الأبدان والأديان ، فإنه رب العالمين ، وأرحم الراحمين » ٠

وكان تجـديد عبد الحميد فى الشكل أكثر من تجديده فى الأصل ٠ وأهم خصائص كتابته :

١ ـ براعتـه فى الصـياغة ، وتأنقه فى اختيار المفـردات الدالة ولذلك فهو يعـد ما يكتب إعـداداً متأنياً ، ولا يرتجـل إرتجالا ٠

٢ ـ عنى بتقسـيم الجمل تقسـيما متسـاويا ، طـولا وقصرا ، وأحيانا تأتى مســجوعة ٠

٣ ـ اهتم بالخيـال وبالمحسنات اللفظية من طباق ومقابلة ٠

٤ ـ أكثر من الإطناب بالترادف ، والتأكيـد عن طـريق التكـرار والتفصـيل لبعض جوانب الفكرة ٠٠ وهـذا جانب من التجـديد الـذى جـاء على يديه ٠

٥ ـ أضاف إلى المظهر العام للرسائل ألوانا جديدة ممثلة فى :

(أ) إطالة التحميد فى مطلـع الرسـائل ٠

(ب) تنويع معانى التحميد حتى يناسب موضوع الرسالة ٠

(ج) هو أول من عقب بالحمد بعد البسملة فاصلا بينهما بـ (أما بعـد ٠٠ هكـذا : بسـم الله الرحمن الرحيـم ، أمـا بعـد فالحمد لله ٠

(د) تنويع فى الختام كما نوع فى المطلع (٤٨) ٠

---

(٤٨) راجع للأستاذة / أدب السياسة ص ٥٧٠ وما قبلها ٠

رابعـا : الوصـايا

الوصايا فن قديم ، أثر منـه عن الجاهليين بعض النماذج ، وكان من أشـهر هـؤلاء الموصين : ذو الأصبع العدوانى وغيره .

وهناك كثير من الوصـايا المـأثورة عن الأمويين .

ـ منها ما أوصى به محمد الباقر عمر بن عبد العزيز قائلا :

(أوصـيك أن تتخـذ صـغير المسـلمين ولدا ، وأوسـطهم أخـا ، وكبيرهم أبآ ، فارحم ولدك ، وصـل أخاك ، وبر أباك ، وإذا صـنعت معروفا فربه)(٤٦) .

وكان الخلفاء والأمراء والولاة يتخـذون مؤدبين لأبنائهم ، فكانوا يوصونهم قبل أن يدفعوا الأبناء إليهم . فمن ذلك ما أوصى به « عتبة ابن أبى سـفيان » « عبد الصـمد » مؤدب ولده :(٤٧)

(ليكن أول ما تبدأ به من إصلاحك بنى إصلاحك نفسك ، فإن أعينهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ما استحسنت ، والقبيح عندهم ما اسـتقبحت .

علمهم كتـاب الله ، ولا تكرهم عليـه فيملـوه ، ولا تتركهم منـه فيهجروه .. ثم روهـم من الشـعر أعفـه ، ومن الحـديث أشرفـه ، ولا تخرجهم من علم إلى غيره حى يحكموه ، فإن ازدحـام الكـلام فى السمع مضـلة للفهـم ..

وعلمهم سير الحكماء ، وأخلاق الأدباء ، وجنبهم محادثة النساء ، وتهددهم بى ، وأدبهم دونى ، وكن لهم كالطبيب الذى لا يعجل بالدواء

---

(٤٦) أى أدمـه وحافظ عليـه .

(٤٧) البيان والتبيين ٧٣/٢ ، العقد الفريد ٢٧٢/٢

حتى يعرف الداء ولا تتكل على عذرى ، فإنى قد اتكلت على كفايتك) .

إن الأب هنا يطلب من المعلم أن يكون قدوة لأبنائه ، فقبل أن « يقول » لهم « يفعل » ، فالسلوك هو ما ينطبع بذهن الطفل ، وإذا ما ناقض قول المعلم سلوكه فلا خير فى تعليمه . وهذا قريب من آيات القرآن الكريم .

ثم ينصحه بأن يبدأ تعليمه لهم بالقرآن الكريم ، وأن يأخذهم به شيئا فشيئا حتى لا يملوه ، وألا يبعدهم عنه كثيرا حتى لا يهجروه ، ثم يوصيه بأن يعلمهم أشعار العرب فقد حوت الكثير من تاريخهم ومعارفهم ... الخ .

وهذا أسماء بن خارجة الفزازى يوصى ابنته ليلة زفافها إلى الحجاج بن يوسف الثقفى قائلا :

(يا بنية ، إن الأمهات يؤدبن البنات ، وإن أمك هلكت وأنت صغيرة ، فعليك بأطيب الطيب الماء ، وأحسن الحسن الكحل ، وإياك والغيرة ، فإنها مفتاح الطلاق ، وكونى لزوجك أمة يكن لك عبدا ، واعلمى أنى القائل لأمك :

(خذى العفو متى تستديمى مودتى
ولا تنطقى فى سورتى حين أغضب

ولا تنقرينى نقرة الدف مرة
فإنك لا تدرين كيف المغيب

فإنى وجدت الحب فى الصدر والأذى
إذا اجتمعا لم يلبث الحب يذهب)

وهكذا رأينا الوصية مرة تأتى مسجوعة فى معظم عباراتها ، وتارة تأتى مطعمة بالشعر وهى لا تخرج عن الإطار الموروث من الجاهلية ، اللهم إلا فى المعانى التى استمدوها من القرآن والسنة ..

الباب الثالث

التراجـــم والنصـــوص

١ ـ شـاعر الحـب

جميـل بن معمـر العـذرى

هـو :(١) جميل بن عبد الله بن معمر بن الحارث بن ظبيان ٠٠٠ من بنى عذرة بن سـعد ٠

شـاعر فصيح مقـدم جامع للشـعر والرواية ٠٠ كان راوية هدبة بن الخشرم ، وكان هدبة شاعرا راوية للحطيئة ، وكان الحطيئة شاعرا راوية لزهير وابنه ٠٠ وكان كثير راوية جميل ٠

شـــاعريته ٠

قال الأصمعى :

كان كثير راوية جميل ، وكان يقـدمه على نفسه ويتخذه إماما ، وإذا سئل عنه قال : وهل علم الله عز وجـل ما تسمعون إلا منه ٠

وعن نصيب مولى عبد العزيز بن مروان قال :

قدمت المدينة فسـألت عن أعلم أهلها بالشـعر ، فقيل لى : الوليد ابن سعيد بن أبى سنان الأسلمى ، فوجدته بشعب سلـع مع عبد الرحمن ابن حسـان وعبد الرحمن بن أزهر ٠ فإنا لجلوس إذ طلع علينـا رجل طويل بين المنكبين طوال يقـود راحلة عليها بزة حسنة ٠

فقال عبد الرحمن بن حسان لعبد الرحمن بن أزهر : يا أبا جبير ، هـذا جميل ، فادعه لعـله أن ينشدنا ٠ فصـاح به عبد الرحمن : هيـا جميل ـ هيا جميل !

---

(١) نسـبه وأخباره فى الأغانى (دار) ٩٠/٨ وما بعدها ٠ الشـعراء والشـعراء ٤٣٤

فالتفت فقال : من هـذا ؟ فقال : أنا عبد الرحمن بن أزهـر . فقال : قد علمت أنه لا يجترىء على إلا مثلك . فأتاه فقال له : أنشدنا ، فأنشـدهم :(٢)

ونحن منعنـا يوم أول نسـاءنا
ويـوم أفـى والأسـنة ترعـف(٣)
ويوم ركـايا ذى الجـذاة ووقعـة
ببنيـان كانت بعض ما قد تسلفوا(٤)
يجب الغـوانى البيض ظـل لـوائنا
إذا مـا أتانـا الصـارخ المتلهـف(٥)
نسـير أمـام النـاس والناس خلفنـا
فإن نحن أومأنـا إلى الناس وقفوا
فـأى معـد كـان فىء رمـاحـه
كمـا قـد أفأنا والمفاخـر ينصـف(٦)
وكنـا إذا ما معشر أجحفـوا بنـا
ومـرت جـوارى طيرهم وتعيفـوا(٧)

---

(٢) القصـيدة فى الديوان ص ١٣٢ ــ ١٤٠ والأغانى ٩٣/٨

(٣) أول : واد . أفى : موضع . ترعف : تسبق وتسرع الطعن .

(٤) ركايا : جمع ركية وهى البئر ذات المـاء . بنيان : موضـع . وذو الجذاة : كذلك .

(٥) الصـارخ المتلهف : المستجير المستغيث ــ أى أنهم يحمون المستجير المتلهف ولذلك تحب النساء الاستجارة بهم .

(٦) الفىء : الغنيمة .

(٧) فى الأغانى (نصبوا لنا) بدلا من (أجحفوا بنا) . أجحف به : ذهب ونازع . تعيفوا : زجروا الطير للتفاؤل أو التشاؤم بها .

وضـعنا لهـم صاع القصاص رهينة
بمـا سوف نوفيها إذا الناس طففوا
إذا اسـتبق الأقـوام مجدا وجدتنا
لنـا مغـرفا مجـد وللناس مغـرف

قال : ثم قال له : انشـدنا هزجا . قال : وما الهزج ؟ لعله هـذا القصـير ؟ قال : نعـم . فانشـده :(٨)

رسـم دار وقفـت فى طللـه
كـدت اقضى الغـداة من جـلله(٨)
موحشـاً مـا ترى به أحـداً تنـ
ـسج الريـح تـرب معتدلـه(١٠)
وصريعـاً مـن الثمـام تـرى
عـارمات المـدب فـى أسـله(١١)
بـين عليـاء وابـش فبـلى
فالغميـم الـذى إلـى جبـله(١٢)

---

(٨) الديوان ص ١٨٨ والأغانى ٩٤/٨

(٩) الطلل : ما شخص من آثار الديار . اقضى : أموت . الغداة : الضحوة أى ما بين صلاة الفجر وطلوع الشمس . من جلله : من عظمه فى عينى أو من أجله .

(١٠) معتدله : ما استوى منه .

(١١) الثمام : نبت ضعيف له خوص . العارمات : القوية الشديدة . المدب : مجرى السيل . الأسل : شجر ، أو كل شىء طويل .

(١٢) وابش : واد أو جبل . بلى : تل . الغميم : موضع .

واقفـــا فـــى ديـــار أم جُسَـــير
حـــين يـــدنو الضجيـــع من غللـــه(١٣)

روضـــة ذات حنـــوة وخـــزامى
جـــاد فيهـــا الربيـــع من ســـبله(١٤)

بينمـــا هـــن بـــالأراك معـــاً
إذ بـــدا راكـــب علـــى جملـــه(١٥)

فتاطـــرن ثـــم قلـــن لهـــا :
اكرميـــه حييـــت فى نزلـــه(١٦)

فظللنـــا بنعمـــة واتكـــأنا
وشربنـــا الحـــلال مـــن قللـــه(١٧)

قد أصـون الحـديث دون خليـل
لا أخـــاف الأذاة مـــن قبلـــه

غـير مـا بغضـة ولا لاجتنـــاب
غـــير أنـــى ألحـــت مـــن وجـــله(١٨)

---

(١٣) أم جسـير : أخت بثينـة . الأصل : جمع أصيل وهو الوقت بعـد العصر .

(١٤) الحنوة : نبت طيب الريح . السـبل : المطر .

(١٥) الأراك : موضع ، أو هو الشجر الذى تتخذ منه المساويك .

(١٦) تأطرن : ملن نحوه . النزل : طعام النزيل الذى يهيأ له .

(١٧) اتكأنا : أى طعمنا ، قال ابن قتيبة : كما فى قوله تعالى (واعتدت لهن متكأ) أى طعـاما . القلل : جمـع قلة وهى إناء للعـرب كالجـرة .

(١٨) ألحت : خفت وحاذرت . الوجـل : الخوف .

وخليـــل صـــافيت مرتضـــيا
وخليـــل فارقـــت مـن ملـــه

قال : فانشـده إياها حتى فرغ منها ثم اقتاد راحلته موليا • فقال ابن الأزهـر :

هـذا أشـعر أهل الإسـلام •

فقـال ابن حسـان :

نعم والله واشـعر أهل الجاهلية ، والله ما لأحـد منهم مثل هجائه ولا نسـيبه •

فقال عبد الرحمن بن الأزهر :

صـدقت •(١٩)

وقال محمد بن سـلام :(٢٠)

كان لكثيـر فى النسيب حظ وافـر ، وجميـل مقـدم عليـه وعلى أصـحاب النسـيب فى النسـيب ، وكان كثير راوية جميل ، وكان جميل صـادق الصبابة والعشق ، ولم يكن كثير بعاشـق ، ولكنه كان يتقـول ، وكان الناس يستحسنون بيت كثير فى النسيب :

أريـد لأنسى ذكـرها فكأنمـا
تمثـل لى ليلى بكـل سـبيل

قال : ورأيت من يفضل عليه بيت جميل :

خليلى فيما عشتما هـل رأيتمـا
قتيـلا بكى من حب قاتلـه قبلى

---

(١٩) الأغـانى ٩٥/٨
(٢٠) نفسـه •

قال ابن سلام :

وهـذا البيت الذى لكثير أخـذه من جميل حيث يقول :

أريـد لأنسى ذكرهـا فكأنمـا

تمثـل لى ليلى على كـل مرقب

ولقى الفرزدق كثيرا بقارعة البلاط ، فقال له الفرزدق :

يا أبا صخر ، أنت أنسب العرب حين تقول :

أريـد لأنسى ذكـرها فكأنمـا

تمثـل لى ليلـى بكـل سـبيل

يعرض له بسرقته من جميل ، فقال لـه كثير : وأنت يا أبا فراس أفخـر الناس حين تقـول :

ترى النـاس ما سرنا يسـيرون خلفنـا

وإن نحـن أو مانا إلى النـاس وقفـوا

قال عبد العزيز . أحـد رواة هـذا الخبر ـ : وهـذا البيت أيضـا لجميـل سرقه الفرزدق .

وسـأل نصيب كثيرا : أأنت أنسب أم جميل ؟ فقال : وهل وطأ لنا النسـيب إلا جميـل !!

راى مخـالف :

وإذا كان هنـاك شبه إجمـاع على أن جميلا أشعر أهـل النسيب وهو إمامهم ، وقد وطأ لهم القول فيه ـ باعتراف أهل النسيب أنفسهم إلا أن الدكتور (زكى مبارك) خـرج عن هذا الإجمـاع ، لكنه عـذر النقـاد أو لا فقـال :(٢١)

---

(٢١) فى كتابه « العشاق الثلاثة » سلسـلة « اقـرأ » ٢٦ ص ٧٥ ومـا بعـدها .

اعـذار للنقـاد

للنقاد القدماء أعذار فى الافتتان بقصائد جميل فى النسيب ، فقد أوفت على الغاية فى براعة التعبير ، ورشاقة البيان ، وكان الناس يرونها وهم يتمثلون روح جميل، وكان روحه من الطف الأرواح، وكيف لا يفتن معاصريه من يقـول :(٢٢)

لقـد فرح الواشـون أن صرمـت حبلى
بثينـة أو أبدت لنـا جانب البخل
يقولـون : مهـلا يا جميـل ، وإننى
لأقسم مالى عن بثينـة من مهـل
أحلمـا ! فقبـل اليـوم كان أوانه
أم اخشى فقبـل اليوم أو عدت بالقتل
إذا مـا تراجعنـا الـذى بيننـا
جـرى الدمع من عينى بثينة بالكحـل
كـلانا بكى أو كـاد يبكى صـبابة
إلى إلفـه واسـتعجلت عبرة قبلى

الــخ ..

ويسوق الدكتور زكى مبارك عددا من نماذج النسيب الرائعة ثم يقـول(٢٣) :

١ - والمهم أن نقـول بعبارة صريحة إن تقـديم النقاد جميلا على كثير لا يرجع إلى أن جميلا أشعر من كثير فى النسيب ، وإنما يرجع إلى أمور كثيرة تتكـون منها ذاتية جميـل :

---

(٢٢) السابق ، والقصيدة فى الديوان ص ١٧٤ وما بعدهـا .
(٢٣) نفسـه ص ٢٨

فقد كان يجمع بين الجمال والفتوة ، والشـعر ، والعشـق • وكان مكتملا فى كل هذه النواحى ، فجمـاله رائع ، وفتونه باهرة ، وشعره رائق ، وعشقه صادق ، ومن كان كذلك فهو خليق بأن يحتل من نفـوس معاصريه أشرف مكان •

وفى مقابل هـذه الذاتية العظيمة تجىء تلك الشخصية الهزيلة ، وهى شخصية (كثير) القزم النحيف ، (كثير) المزدرى لدمامته وقصره وحمقه وغلوه فى التشيع غلوا يقترب من السخف •

ومن كان كذلك فكيف يجـد من يحكم له بالتقـدم على جميل ؟

٢ - وعن رأى كثير فى جميل وتقديمه له على نفسه يقول الدكتور زكى مبارك :(٢٤)

لو نبس كثير بحـرف يؤكد أنه أشعـر من جميـل لرجمه الناس بالحجارة ، أو حثوا فى وجه التراب •

٣ - ويرى الدكتور زكى مبارك أن آراء الشعراء فى جميل ما هى إلا مجـاملة ترجـع فى بعض أسـبابها إلى أدب جميـل فى مخاطبـة الشعراء(٢٥) ويسـوق مواقف كأمثلة لهذه المجالات •

٤ - وينتهى الدكتور زكى مبارك إلى قوله :

أقول بدون تردد : إن كثيـرا فاق أنداده فى الغـزل والنسـيب ، ولولا تلك الحالات التى غضت من مكانته فى أعـين الناس لاعترف لـه معاصروه بالإمامة فى التشـبيه ، ويكفيه مجـداً أنه برغم تلك الحـالات وجـد من يوازن بينـه وبين جميل ، وهل يصل إلى هـذه المنزلـة من يكون فى مثل حاله إلا بقـوة روحية تخلب الألباب والعقول ؟

---

(٢٤) نفسـه • (٢٥) نفسـه ٧٩

٥ ـ ويقـول الدكتور مبارك بعد ذلك :

إن الأدباء الأمويين قدموا جميلا عليه ، وليس فى ذلك معـاب ، فقـد كان جميل ريحانة ذلك الزمان ..

فهل قدموا عليه عمر بن أبى ربيعـة وكان فتنة الفتن فى مغـازلة النســاء ؟

هل قدموا عليه (الأحوص) ؟ هل فكروا فى الموازنة بين جرير والفرزدق والأخطل فى النسيب ؟

ذلك شـاعر فاتته نضـارة الجسـم ولم تفته نضارة الروح .

* * *

تعليـق ونقـد .

حينما تقرأ كلام الدكتور زكى مبارك تشـعر أنه ياسي للظلـم الذى وقع على (كثير) ، ويرى أنه أجدر بالتقديم وأحـرى بأن يكون نسيج وحـده فى النســيب ، وأنه لولا دمامته وحقـارته ـ فى مقابل وسـامة جميل وحسـن خلقته ـ ما قـدم جميل عليـه ..

كما أنه كان شيعيـا فكان على الشعـراء الأمـويين أن ينـاهضوه ويقفوا فى وجهـه .

كما يرى الدكتور أن آراء الشعراء فى جميل ما هى إلا مجاملة .

وهـذا كلام أطلقه الدكتور زكى مبارك على عواهنه ، فلـم يأت مثلا بقصـائد للشـاعرين ويعقد موازنة بينهما ليقفنا على حقيقة هـذا الظلـم الواقع على كثير .

والدكتور زكى نفسـه يقـر بتقـديم جميل على كثير حين يقـول عن تقديم الأدباء وتفضيلهم جميلا على كثير :

وليس فى ذلك معـاب ، فقـد كان جميل ريحانة ذلك الزمان .

ثم كيف يرمى الدكتـور مبـارك بكلام (كثـير) نفسـه وشهادته

عرض الحائط والرجل اقر بأستاذية جميل ، وبأنه إمام النسيب ، وهو الذى وطأ القول لمن بعـده بمن فيهم كثير !! ٠

ولم يطلعنا الدكتور على مواطن فى شعر جميل لا تستحق الثناء ، وجامله الشعراء فأثنوا عليها دونما استحقاق ٠

وأما عـدم تقـديم غيره من الشـعراء عليه فليس ذلك لعيب فى أسفارهم وإنما لكل فنه الذى يجـيده ٠

فابن أبى ربيعـة إمـام الغزل الحسى بلا ريب فلا يتأتى أن نعقـد موازنة بينه وبين شاعر عرى كجميل أو كثير أو غيرهما ٠

وكذلك بقية الشعراء الذين ذكرهم ٠

وخلاصـة القـول :

أن جميلا أشـعر النسابين ، وإمامهم ، باجمـاع النقـاد القـدماء والمحدثين ٠

بـدء حبـه لبثينـة ٠

ذكروا فى ذلك خبرين ٠

١ ـ قالوا : إنه كان يحب أختها « أم الجسير » وكان أول ما علق بثينـة :(٢٦)

أنه اقبل يوما بإبله حتى أوردها واديا يسمى بغيض ، فاضطجـع وأرسل إبله مصعدة ، وأهل بثينة بآخر الوادى ، فأقبلت بثينة وجارة لها تريدان المـاء ، فمرتا على فصال له بروك فنفرتهن بثينة ، وهى إذ ذاك جويرية صغيرة ، فسبها جميـل فسبته ، فملح إليـه سبابها ، وأحبها ، وأقلع عن النسيب بأختها ٠ وقال فى ذلك :

---

(٢٦) الأغانى ٨/٩٨

واول مـا قـاد المـودة بيننـا
بـوادى بغيض يا بثـين سـباب
وقلت لهـا قـولا فجـاءت بمثـله
لكـل كـلام يا بثـين جـواب

٢ ـ وقيل :(٢٧) إن جميل بن معمر خرج فى يوم عيد والنسـاء إذ ذاك يتزين ، ويبدو بعضهن لبعض ويبدون للرجال ، وأن جميـلا وقف على بثينـة وأختها وأم الجسـير فى نسـاء من بنى الأحب وهن بنات عم عبيد الله بن قطبة أخى أبيه لحـا ، فرأى منهن منظرا وأعجبنه، وعشق بثينة ، وقعد معهن ، ثم راح وقد كان معه فتيان من بنى الأحب فعلم أن القـوم قد عرفوا فى نظـره حب بثينة ووجدوا عليه فراح وهو يقـول :

عجل الفـراق وليتـه لـم يعجـل
وجـرت بـوادر دمعـك المتهلـل
طربا وشـاقك ما لقيت ولم تخف
بـين الحبيب غـداة برقـة مجـول
وعرفت انك حين رحت ولـم يكن
بعـد اليقين وليس ذاك بمشـكل
لن تسـتطيع إلى بثينـة رجعـة
بعـد التفـرق دون عـام مقبـل

ولـما أخبرت بثينة أن جميلا قد نسب بها حلفت بالله لا يأتيها على خلاء إلا خرجت إليه ولا تتوارى منه ، فكان يأتيها عند غفلات الرجال،

---

(٢٧) نفسه ٨/٩٩ ، والديوان ص ١٧٠

فيتحدث إليها ومع أخواتها ، حتى نمى إلى رجالها أنه يتحـدث إليها إذا خلا منهم ، وكانوا أصلافاً غيراً ، فرصدوه بجماعة نحـو من بضـعة عشر رجلا ، وجـاء على الصهباء ناقته حتى وقف على بثينة وأم الجسير وهما يحدثانه وهو ينشدهما يومئذ (٢٨) :

حلفـت برب الراقصـات إلى منى
هـوى القطـا يجتزن بطن دفـين
لقـد ظن هذا القلب أن ليس لاقيا
سـليمى ولا أم الجسـير لحـين
فليت رجـالا فيـك قد نذروا دمى
وهمـوا بقتلى يا بثـين لقـونى

فبينا هو على تلك الحال إذ وبت عليـه القوم فرماهم بها فسبقت به وهو يقـول :

إذا جمـع الإثنـان جمعاً رميتهـم
بأركانهـا حتـى تخلـى سـبيلها (٢٩)

* * *

عشق جميل بثينة وهو غلام صـغير حتى إذا ما شـبت عن الطوق خطبها فرفض ، فهام بها ، وكان يلقاها سرا .

وفى أحد لقـاءاته بها سعت أمـة لبثينـة بها إلى أبيهـا وأخيهـا وقالت لهما : إن جميلا عندها الليلة ، فأتياها مشتملين على سـيفين ،

---

(٢٨) هكذا فى الأغانى وهى من قصـيدة فى الديوان ص ٢٠٨ ، ٢٠٩ والبيت الثالث جـاء مقدما على البيتين الأولين . وبينهما أربـع أبيـات .

(٢٩) الأغانى ٨/٩٩ ، والديوان ص ١٧٠

فرآياه جالسـا حجرة منها يحـدثها ويشـكو إليهـا بثه ، ثم قال لهـا : يا بثينة ، أرأيت ودى إياك وشغفى بك ألا تجزينيه ؟ قالت : بماذا ؟ قال : بما يكون بين المتحابين . فقالت له : يا جميل ، أهـذا تبغى ! والله لقـد كنت عندى بعيـدا منـه ، ولئن عـاودت تعريضـا بريبة لا رأيت وجهى أبدا .

فضحك وقال : والله ما قلت لك هـذا إلا لأعلم ما عنـدك فيـه ، ولو علمت أنك تجيبينى إليه لعلمت أنك تجيبين غيرى ، ولو رأيت منك مساعدة عليه لضربتك بسيفى هـذا ما استمسك فى يدى ، ولو اطاعتنى نفسى لهجرتك هجرة الأبد ، أو ما سمعت قولى :

وإنى لأرضى من بثينـــة بالـــذى
لو ابعـده الـواشى لقـــرت بلابـــله

بـلا وبـان لا اســتطيع وبالمنــى
وبالأمـل المرجـو قـد خاب آملـه

وبالنظرة العجلى وبالحـول تنقضى
أواخـــره لا نلتقـــى وأوائلـــه

فقال أبوها لأخيها : قـم بنا ، فما ينبغى لنـا بعـد اليـوم أن نمنع هـذا الرجل من لقائهـا ، فانصرف وتركاها .

هكذا ذكر الأصفهانى ، وفيها نظر ، فأين غيرة العـربى القريب العهـد بالجاهلية ، أو ليسـوا أحفادا لمن كانوا يئدون البنات خشية من السبى ، بل إن بعضهم كان يقتل ابنته غيرة عليها من أن تتزوج ويخلو بها الزوج !!! وإذا كانوا قد تغيرت طباعهـم شـيئا ما فليس إلى هـذا الحـد ..

نص الجميـــل

عــاودت من جمــل قــديم صبــابتى
وأخفيت من وجدى الذى كان خافيــا
ورد الهوى أثنــان حتى استفـــزنى
من الحب معطوف الهــوى من بلاديا (٣٠)
أتعــــذر لا بــل لا محــــالة انــه
مــلوم إذا ذو الشيــب رام التصـــابيا
حبيب دعــا عن طــول ليــل حبيبــه
صبــا صبــوة لمــا أطــال التقـــائيا
إذا قلت : أنســــاها • تردد حبهــــا
كذى الدين يقضى مغــرما كان كاليــا (٣١)
أقــول لــداعى الحب والحجــر بيننا
ووادى القــرى : لبيــك ، لمــا دعانيا
فلم تنكــر الــداعى ولــكن حبهـــــا
أصيــل وبيــلى كالذى كنت باليـــــا
فمــا أحــدث النــأى المفــرق بيننــا
سلوا ، ولا طــول اجتمــــاع تقاليــا
كــأن لم يكن نأى إذا كــان بعــــده
تــلاق ، ولكن لا إخــــال تــلاقيــا
خليـــلى إن لم تبكيــا لى التمــس
خليــلا إذا أنزفت دمعــــا بكى ليــا

---

(٣٠) أثنــان : موضــع .
(٣١) المغــرم : الغــرامة . الكالى : المتأخر .

وقــال خليــلى : إن تيمـــاء موعـــد
لـ (بثن) إذا ما الصيف ألقى المراسيا
فهذى شهــور الصيف عنا قد انقضت
فمــا للنــوى ترمى بليــلى المــراميا
ألم تــك إذ أهــلى وأهلــك جــيرة
تخبـــرنى إن بنت الا تــلاقيـــــا
ذرى رد قـــول مضى كنت قلتـــــه
ولقــت به أو ضـــلة من ضـــــلاليا
وأنت التى إن شئت كدرت عيشــتى
وإن شئت ـ بعد الله ـ أنعمــت باليــا
وأنت التى ما من صـديق ولا عــدى
يرى نضــوما ابقيــت إلا رثى ليـــا (٣٢)
فإنــك لو تجلـــين نحـــو تهـــامة
أو الركن من حــوران اصبحت جاليا
وقد خفت أن يغترنى المـوت بغتـــة
وفى النفس حاجت إليــك كمــا هيــا
وإنى لتثنينى الحفيظـــــة كلمـــا
لقيتــك يومـــا أن أبثــك مــا بيــا
ألم تعلمــى يا عـــذبة المــاء أننى
أظــل إذا لم اسـق مــاءك صـــاديا
ذكـــرتك بالديرين يومـــا فاشــرفت
بنــات الهــوى حتى بلغــن التراقيــا

---

(٣٢) النضــو : المهــزول .

وما زلت بى يا بثن حتى لو اننى
من الوجد أستبكى الحمام بكى ليا
إذا خدرت رجلى ، وقيل شفاؤها
دعاء حبيب ، كنت أنت دعائيا
وددت على حبى الحياة لو انها
يزاد لها فى عمرها من حياتيا
٢٥ - فأقسمت لا ألحو محبا ولا أرى
له لاحيا إلا دعوت الجوازيا
وإلا اعترتنى عبرة بعد فترة
وإلا تداعى الحب منى تداعيا
فلا تسمعوا قولا لهم إن تظاهروا
على بلوم أنت سديته ليا
فما زادنى الواشون إلا صبابة
ولا زادنى الناهون إلا تماديا
إذا علمت وجدى بها وصبابتى
فإن المنايا قاصدات وشاتيا (٣٣)

حول أبيات من القصيدة :

١ - روى أبو الفرج الأصبهانى عن أبى عبيدة عن أبيه قال(٣٤) : دخل علينا كثير يوما وقد أخذ بطرف ربطته وألقى طرفها الآخر وهو يقول : هو والله أشعر الناس حيث يقول :

خبر تمانى أن تيماء منزل
لليلى إذا ما الصيف ألقى المراسيا

---

(٣٣) القصيدة فى الديوان : ص ٢٢١ - ٢٢٤ .

(٣٤) الأغانى ١٢٥/٨ .

فهـذى شهور الصيف عنى قد انقضت

فما للنـــوى ترمى بليـلى المراميـــا

ويجـر ريطته حتى يبلـغ إلينـا ، ثم يولى عنا ويجرها ويقول : هو والله أشعر النـاس حيث يقول :

وأنت التى إن شئت كـدرت عيـشتى

وإن شئت بعـد الله أنعمـت باليـــا

وأنت التى ما من صـديق ولا عـــدا

يرى نضـــوما أبقيت إلا رثى ليـــا

ثم يرجـع إلينـا ويقول : هو والله أشعر الناس . فقلنا : من تعنى يا أبا صخـر ؟ فقال :

ومن أعنى سـوى جميل ! هو والله أشعر الناس حيث يقول هذا !

٢ - عن الرحال بن سعد المـازنى قال(٣٥) :

وقـع بين جميل وبثينة هجر فى غيرة كان غارها عليهـا من فتى كان يتحدث إليهـا من بنى عمها ، فكان جميـل يتحدث إلى غيرها ، فيشق ذلك على بثينـة وعلى جميـل ، وجعـل كل واحد منهما يكـره أن يبدى لصاحبه شـانه ، فدخـل جميـل يوما وقد غلبـه الأمـر إلى البيت الذى كان يجتمـع فيـه مع بثينـة . فلمـا رأته بثينـة جاءت إلى البيت ولم تبرز له ، فجـزع لذلك جميـل ، وجعـل كل واحد منهما يطـالع صاحبه ، وقد بلـغ الأمـر من جميـل كل مبلغ فانشا يقول :

لقد خفت أن يغتـالنى المـوت عنـوة

وفى النفس حاجات إليـك كما هيـا

(٣٥) الأغـانى ٨/١٥١ ، ١٥٢ .

وإنى لتثنينى الحفيظـــة كلمـــا
لقيتــك يومـــا أن ابثـــك مـــا بيـــا
ألم تعلمـــى يا عـــذبة الـــريق أننى
أظـــل إذا لم أســق ريقـــك صـــاديا

قال : فرقت له بثينة ، وقالت لمولاة لها كانت معهـا : ما أحسن الصدق بأهله ! ثم اصطلحا ، فقالت له بثينة : أنشدنى قولك :

تظــل وراء الســـتر ترنـــو بلحظها
إذا مـــر من أترابهـــا مـــن يروقهـــا

فأنشدها إياها ، فبكت وقالت : كلا يا جميـل ! ومن ترى أنـه يروقنى غيرك ! .

مميزات شعـــر جميـــل

من أهم ما يميز شعـــر جميـــل :

١ ـ غلبة المعانى الفطرية على شعره : (فهو فى بعض تصوراته طفـل ، ولكنه يصدق صدق الأطفال ـ أليس هو الذى يقول :

ألا ليت شعـــرى هـــل أبيتن ليـلـــة
بوادى القـــرى ؟ إنى إذا لسعيـــدا !
وهـــل ألقـــين فـــردا بثينـــة مـــرة
تجـــود لنـــا مـــن ودهـــا ونجـــود ؟
علقت الهـــوى منهـــا وليـــدا فلم يزل
إلى اليـــوم ينمـــى حبهـــا ويزيد
وأفنيت عمـــرى بانتظـــارى وعـــدها
وأبليت فيهـــا الدهـــر وهو جـــديد
فـــلا أنا مـــردود بما جئت طالبـــا
ولا حبهـــا فيمـــا يبيـــد يبيـــد

يقول الدكتور زكى مبـارك (٣٦) :

هـذا كلام أطفـال فى نظـر من يرون الشعـر صناعة تؤرق فى تجويدها الجفـون ومع ذلك فقد بلغ الشـاعر الغـاية فى الاستجـابة للفطـرة والطبع .

فالبيت الأول والبيت الثـانى من الأعاجيب فى تمثيـل الحسرة على الأمل المفقود ، وقد أدى الشاعر المعنى فى صدق منزه عن التزويق والتهـويل .

أما قوله : (ولا حبها فيما يبيد يبيد) فهو صـرخة الشاعر الذى لا يملك الفـرار من لوعته العـاتية ، لأن المقـادير نزهتها عن الفناء .

٢ - توافر التنغيم الموسيقى فى شعـره :

ومما يدل على ذلك أنه غنى من شعره تسعـة وعشرون صـوتا - فشعره الحـان عذبة تقوم على قواعد من السجع والرنين ، وحياة جميل كانت تسـاعد على التجـويد فى الغنـاء ، فقـد قضى دهـــره وهــو مشغول بعواطف رقيقـة ترهف الحس والذوق ، وتفطـر النفس على حب الترنم والتغـريد ، ومن هنا غلبت الموسيقى على شعره؟٣٧) ..

٣ - حـرارة العاطفـة وصدقها :

لقد كان جميـل صادق الصبابة والعشـق وشعره يشهد بذلك فهو القـائل (٣٨) :

---

(٣٦) العشـاق الثلاثة : ص ٤٢ ، ٤٣ .

(٣٧) راجع : العشاق الثلاثة : ٣٩ ، ومقدمة ديوان جميل : ص ١٧ .

(٣٨) الديوان : ص ٣٤ .

أريد لأنسى ذكـــــرها فكأنمـــــا

تمثـــل لى ليـــلى على كل مـــرقب

وهو القـائل :

وإنى لأرضى مـن بثينـــة بالـذى

لـو ابصـره الـواشى لقـرت بلابـله

بـلا وبأن لا أستطيـــع وبالمــــنى

وبالأمـــل المــرجـــو قد خاب آمـله

وبالنظرة العجـلى وبالحـول تنقضى

أواخـــره لا نلتـقى وأوائـــــــله

وهو القـائل(٤٠) :

أصـلى فأبكى فى الصـلاة لذكـــرها

لى الويـــل ممـــا يكتـب الملــــكان

* * *

؟٣٩) نفسـه : ص ١٦٩ .

(٤٠) نفسـه : ص ٢٠٣ .

٢ - شـــاعر أهــل الشـــام
عــدى بن الرقاع العــاملى

تعـريف بالشـاعر :

هــو عــدى بن زيد بن مــالك بن عــدى بن الرقاع ... ينتهى نســبه الى قبيلة عاملة وكنيته : أبو داود .. كان ينزل الشـام ولـذا يقــال له « شاعر أهــل الشام » ..

وتضــن كتب التراجـم بذكــر كثيــر عن حيــاته .. وذكـر ابن قتيبة(١) أنه كانت له بنت تقول الشعر ، إذ جاءه أناس يوما ليعارضوه، وكان غائبا عن منزله ، فسمعت بنتــه ، - وهى صــغيرة لم تدرك - بعض وعيدهم ، فخرجت اليهم تقــول :

تجمعتــم من كـــل أدب وبلـــدة
على واحد ، لا زلتم قــرن واحد !

فأفحمتهم .

وقد جالس عــدى كبار شعراء العصر الأموى : جرير ، والفرزدق والأخطل ، وكثير عزة ، والراعى النميرى ..

وتهاجى مع جرير .. ذكــر الأصفهانى : أن جـريرا دخل على الوليد بن عبد الملك وهو خليفة وعنده عــدى بن الرقاع العاملى فقــال هــذا عدى بن الرقاع . فقال جرير : فشر الثياب الرقاع ، قال : ممن هو ؟ قال : العاملىّ . فقال جرير : هى التى يقول فيها الله عز وجل (عاملة ناصبة . تصلى نارا حامية) .. ثم قال :

---

(١) الشعر والشعراء ٦١٨ ، والأغانى ٩/٣١٠

يقصر بـاع العاملى عـن النـدى

ولكــن ٠٠٠٠ العاملى طـويل

فقـال له عـدى بن الرقاع :

امـك كانت اخبرتـك بطولـــه

ام انت امرؤ لم تدر كيف تقول ؟

فقال لا : بل أدرى كيف اقـول ٠

فوثب العاملى إلى رجل الوليد فقبلها وقال : أجرنى منه ٠

فقال الوليد لجرير : لئن شتمته لأسرجنك ولألجمنك حتى يركبك فيعيرك الشعراء بذلك ٠ فكنى جرير عن اسمه فقال :

إنى إذا الشـاعر المغـرور حربنى

جـار لقبـر على مـران مرمـوس(٢)

إلـــخ(٣) ٠

عـدى وكثيـر عزة :

حكى الأصفهانى(٤) : إن كثير عـزة كان فى حضرة الوليد بن عبد الملك ، وكان يبلغـه أن عديا يطعن على شـعره ويقـول : هـذا شعر حجازى مغرور إذا أصابه قر الشـام جمد وهلك ٠

وكان عـدى قد أخـذ فى إنشـاء قصـيدته - التى ذكرناهـا - : عـرف الديار توهما فاعتادها ٠ حتى أتى على قوله :

وقصـيدة قد بت أجمـع بينهـا

حتى اقـوم ميلهـا وسـنادها

---

(٢) يريد قبر تميم بن مربمران ٠ حربنى : أغضبنى ٠

(٣) راجع / الأغانى ٣٠٧/٩ ، ٣٠٨

(٤) الأغانى ٣١٦/٩

فقــال له كثير : لو كنت مطبوعا ، أو فصيحا ، أو عالمـا لم تأت فيها بميـل ولا سـناد فتحتاج إلى أن تقومها . ثم أنشد :

نظـر المثقـف فى كعـوب قناتـه
حتى يقيــم ثقــافه منآدهـــا

فقال له كثير : لا جرم أن الأيام إذا تطاولت عليها عادت عوجاء ، ولأن تكون مستقيمة لا تحتاج إلى ثقــاف أجـود لها . ثم أنشد :

وعلمت حتى ما أسـائل واحـــدا
عن علـم واحـدة لكى أزدادهـــا

فقال كثير : كذبت ورب البيت الحرام ! فليمتحنك أمير المؤمنين بأن يسالك عن صـغار الأمور دون كبارها حتى يتبين جهلك . وما كنت قط أحمق منك الآن حيث تظن هـذا بنفسـك . فضـحك الوليد ومن حضر وقطـع بعـدى بن الرقاع حتى ما نطق .

عـدى والراعى :

حاول الراعى أن يظهر أنه لا يبالى بعـدى ، ولا يقيـم له وزنا فى قوله :

لـو كنت من أحـــد يهجى هجـوتكم
يا ابن الرقـــاع ولكن لسـت من أحـد

أجـابه عـدى :

حدثت أن رويعى الإبـل يشتمنى
والله يصرف أقـواما عن الرشــد

فأنت والشـعر ذو تزجى قوافيـة
بكتفي الصـيد في عريسـة الأسـد

شعره وآراء النقاد فيه :

- قال ابن قتيبة(٥) : « وكان شاعرا محسنا ، وهو أحسن من وصفا ظبية وصفا » فقال :

كالظبية البكر الفريدة ترتعى
من أرضها قفراتها وعهادها
خضبت لها عقد البراق جبينها
من عركها علجانها وعرادها
كالزين فى وجه العروس تبدلت
بعد الحياء فلاعبت أرآدها
تزجى أغن كأن إبرة روقه
قلم أصاب من الدواة مدادها

- وقال عنه الأصفهانى(٦) :

ينفرد عدى بن الرقاع بوصف المطية ويقدم فيه .

- وكان أبو عبيدة يستحسن بيته :

وسنان أقصده النعاس فرنقت
فى عينه سنة وليس بنائم

ويقول : ما قال أحد فى مثل هذا المعنى أحسن منه فى هذا الشعر(٧) .

- وسئل جرير : من أنسب الشعراء ؟ قال : ابن الرقاع فى قوله :

---

(٥) الشعر والشعراء ٦/٨
(٦) الأغانى ٩/٣١٠
(٧) نفسه .

لولا الحيـاء وأن رأسى قد عسا

فيـه المشـيب لزرت أم القاســم

.. الأبيات . ثم قال : ما كان يبالى أن لم يقل بعدها شيئا(٨) .

وقد استشهد أصحاب المعاجم وكتبه البلاغة والأمالى بشعر عدى ، وقد استشهد ياقوت لعـدى وحـده بأكثر من مائة وعشرة أبيات .

وكانت له الحظوة عند الوليـد بن عبد الملك ، ومعظم شـعر عـدى مقصـور عليـه ..

عـدى وبنـو أميـة .

كان عـدى مقدما عند بنى أميـة ، مداحا لهم ، خاصـا بالوليد بن عبد الملك ، وقال فيـه قصـائد طويلة .

* * *

(٨) الأغانى ٣١٣/٩

عــدى بن الرقاع العاملى يمدح الوليــد بن عبد الملك (١) .

١ ـ عرف الــديار توهمــا فاعتادهـــا
من بعـد ما شـمل البلى أبلادهـا
٢ ـ إلا رواسى كلهـــن قــد اصـــطلى
حمـــراء اشـعل أهلهـا إيقادهـا
٣ ـ كانت رواحــل للقــدور فعـــريت
منهــن واســتلب الزمــان رمادهـا
٤ ـ بشــبيكة الحــور التى غربيهـــــا
فقــدت رســوم حياضــه ورادهـــا
٥ ـ وتنكــرت كــل التنكـــر بعــــدنا
والأرض تعــرف تلعــها وجمادهـا
٦ ـ ولرب واضــحة الجبــين خريـــدة
بيضــاء قد ضربت بهــا أوتادهـا
٧ ـ تصطاد بهجتهــا المعلل بالصــــبا
عرضـاً فتقصـــده ولن يصــطادها
٨ ـ كالظبيــة البكـــر الفــريدة ترتعى
من أرضــها قفـــراتها وعهـــادها
٩ ـ خضبت لهــا عقــد البــراق جبينها
مــن عركهـــا علجانهــا وعــرادها
١٠ ـ كالزين فى وجه العــروس تبذلت
بعـــد الحيــاء فــلاعبت أرآدهـــا
١١ ـ تزجى اغن كــان إبـــرة روقــه
قلـــم أصاب من الدواة مــدادهـا

١٢ - ركبت به مـن عـالج متحـيرا
قفـرا تربـب وحشـه اولادهـا

١٣ - بمجـر مرتجـز الرواعـد بعجت
غر السـحاب به الثقال مزادهـا

١٤ - فترى محانيـه التى تسـق الثرى
والهبـر يونـق نبتهـا روادهـا

١٥ - بانت سـعاد واخلفـت ميعادهـا
وتباعـدت منـا لتمنـع زادهـا

١٦ - إنى إذا مـا لـم تصلنى خلتـى
وتباعـدت عنى اغتفرت بعـادها

١٧ - وإذا القـرينة لم تزل فى نجـدة
من ضغنها سـئم القـرين قيـادها

١٨ - إمـا ترى شـيبى تفشـع لمتـى
حتى عـلا وضـح يلـوح سـوادها

١٩ - فلقـد ثنيت يد الفتـاة وسـادة
لى جاعـلا يسرى يـدى وسـادها

٢٠ - واصاحب الجيش العرمرم فارسا
فى الخيل اشـهد كرهـا وطرادها

٢١ - وقصـيدة قد بت اجمع بينهـا
حتى اقـوم ميلهـا وسـنادها

٢٢ - نظـر المثقف فى كعـوب قناتـه
حتى يقيـم ثقـافه منآدهـا

٢٣ - ولقـد اصـبت من المعيشـة لـذة
ولقيت من شظف الخطوب شدادها

٢٤ - فسترت عيب معيشتى بتكرم
وأتيت فى سعة النعيم سدادها

٢٥ - وبقيت حتى ما اسائل عالما
عن علم واحدة لكى أزدادها

٢٦ - صلى الإله على امرىء ودعته
وأتم نعمته عليه وزادها

٢٧ - وإذا الربيع تتابعت انواؤه
فسقى خناصرة الأحص فجادها

٢٨ - نزل الوليد بها فكان لأهلها
غيثا اغاث انيسها وبلادها

٢٩ - أولا ترى ان البرية كلها
ألقت خزائمها إليه فقادها

٣٠ - ولقد أراد الله إذ ولاكها
من امة إصلاحها ورشادها

٣١ - وعمرت أرض المسلمين فاقبلت
ونفيت عنها من يريد فسادها

٣٢ - واصبت فى أرض العدو مصيبة
بلغت اقاصى غورها ونجادها

٣٣ - نصراً وظفراً ما تناول مثله
أحد من الخلفاء كان ارادها

٣٤ - وإذا نشرت الثناء وجدته
جمع المكارم طرفها وتلادها

٣٥ - غلب المساميح الوليد سماحة
وكفى قريشا ما ينوب وسادها

٣٦ ـ تاتيه اسلاب الأعزة عنوة
قسراً ويجمع لحروب عتادها

٣٧ ـ وإذا رأى نار العدو تضرمت
سامى جماعة أهلها فاكتادها

٣٨ ـ بعرمرم يئد الروابى ذى وغى
كالحرارة احتمل الضحى أطوادها

٣٩ ـ أطفأت نيران العدو وأوقدت
نار قدحت براحتيك زنادها

٤٠ ـ فبدت بصيرتها لمن تبع الهدى
وأصاب حر شرارها حسادها

٤١ ـ وإذا غدا يوما بنفخة نائل
عرضت له الغد مثلها فأعادها

٤٢ ـ وإذا جرت خيل تبادر غاية
فالسابق الجائى يقود جيادها

مفردات القصيدة :

١ ـ اعتادها : أعاد النظر إليها مرة بعد أخرى لدروسها حتى عرفها ، أو أنه أتاها مرة بعد أخرى . شمل : عم . أبلادها : آثارها واحدها : بلد .

٢ ـ الرواسى : يريد الأثافى ، رسا الشىء يرسو رسواً إذا ثبت . حمراء : يقصد نيران الحب والفراق .

٣ ـ رواحل للقدور : مواقد تحمل الأوانى ، يقصد : عريت من القدور .

٤ ـ شبيكة : تصغير شبكة ، وهـو مكان كثير الآبار يقرب بعضها من بعض وتكون قريبة القعور ٠ وقيل : هو ماء ، وقيل : موضع بطريق الحجاز ، وقيل : هو بين مكـة والزاهد على طريق التنعيم ٠

٥ ـ التلعـة : مسـيل ما ارتفـع من الأرض إلى بطن الوادى ، الجماد : اليابسـة التى لم يصبها مطر ولا شىء فيها ٠

٦ ـ روى البيت رواية أخرى هكذا : (الأغانى ١/٣٠٠ دار) ٠

ولرب واضحـة العـوارض طفلـة
كالـريم قد ضربت بهـا أوتادهـا

والعوارض : الثنايا ٠ طفلة : رخصة ناعمة ٠ الخريدة : البكر التى لـم تمسس قط ، وقيل هى الحيية الطـويلة السكوت الخافضـة الصـوت المسـتترة ٠

٧ ـ بهجتها : حسنها ٠ المعلل بالصـبا : المشـغول به ٠

٨ ـ البكر : التى ولدت بطنا ٠ الفريدة : أى التى انفـردت عن صواحبها وخذلتهن حتى تقيم على ولدها ٠ قفرات : جمع قفرة ٠ وقـد وردت (قفاتها) جمع قفة وهى شـجرة مسـتديرة ترتفع عن الأرض قدر شـبر وتيبس ٠ العهاد : جمع عهدة وهو أول ما يقع من المطـر ٠

٩ ـ خضبت : أثرت فى جبينها ، وخضب الشجر إذا ظهر ورقه بعـد المطر ٠ عقد : جمع عقدة وهو من الشجر ما ثبت أصله ، العلجان : شجر أخضر مظلم الخضرة متهصر ليس فيـه ورق وإنما هـو قضـبان كالإنسان القاعد ، ومنبته السهل ولا تأكله الإبل إلا مضطرة ٠ العراد : شجر غليظ كبير ، وقيل هو حشيش طيب الريح ٠

١٠ ـ الزين : الشامة ، أو النقط فى وجـه العروس تكـون من

زعفران ، أو هو : ما تتزين به من الحلى . أرآدها : مفردها : رئد وريد ومعناها : الأتراب والأصدقاء ، وقيل أرآدها : أغصانها .

١١ - تزجى : تسوق ، أو تدفع . الأغن : الظبى الصغير ضعيف الصوت ، أو يخرج صوته من خياشيمه . إبرة روقه : حد قرنه . المداد : الحبر .

١٢ - عالج : قيل هو ما تراكم من الرمل ودخل بعضه فى بعض ، وقيل هو شجر يأكله البعير ، وقيل هو اسم موضع نسب إلى الشجر واقع بين فيد والقريات على طريق مكة لا ماء فيه . متحير : صعب المرتقى . تربب : تربىٰ يقال : ربيته وربّبته بمعنى واحد .

١٣ - مجر : ما فى بطن الناقة . مرتجز الرواعد : أى مرتجز بالرعد أى كأن رعده صوت مرتجز . الرواعد : جمع راعدة وهى الرعد ..

ويروى : مرتجز الروائح أى السحب التى تمطر بالعشى : بعجت : شققت ، يقال : تبعج السحاب وانبعج بالمطر : انفرج عن الودق والوبل الشديد . غر السحاب : بيضه وهى الثقال أى أنها كثيرة الماء . المزادة : الرواية ، وقال ابن سيده : هى التى يحمل فيها الماء .

١٤ - محانيه : معاطفة وثناياه ، جمع محنية ، وهو ما انحنى من الوادى . تسق : من الوسق وهو الجمع ، يقال : لا أكلمه ما وسقت عينى الماء ، ووسقت الإبل إذا طردتها وجمعتها . الثرى : الندى ومثل هذه الأرض يكون نبتها ناعما . الهبر : المطمئن من الرمل أو الأرض وما وحوله أرفع منه . يونق : يعجب . الرواد : طلاب الكلأ والمرتع الخصب .

١٥ - بانت : بعدت .

١٦ ـ الخلة : الصديق والصداقة والمراد هنا : الصديقة . اغتفرت : احتملت .

١٧ ـ القرينة : البعير يقرن إلى آخر من قرن . النجدة : الشدة والتعب . من ضغنها : قال ثعلب : أى أنها تضغن إلى وطنها تنزع إليه فهى تجاذب ما لزت إليه . والمعنى الشائع للضغن : الحقد والبغض . قال ابن منظور : وامرأة ذات ضغن على زوجها إذا أبغضته .

١٨ ـ تفشغ الشيب : كثر وانتشر . اللمة : الشعر المجاور شحمة الأذن . الوضح : البياض .

١٩ ـ ورد البيت فى رواية أخرى هكذا :

فلقد ثنيت يد الفتاة وسادة

لى جاعلا يسرى يدى وسادها

٢٠ ـ الكر : الرجوع ، كر عليه كرا : عطف ، وكر عنه : رجع . طرادها : عدوها وتتابعها .

٢١ ـ السناد : هو عيب من عيوب الشعر ، وهو اختلاف الأرداف كقول عبيد :

فقد الج الخباء على جوار

كأن عيونهن عيون عين

ثم قال :

فإن يك فاتنى أسفاً شبابى

وأضحى الرأس منى كاللجين

وقالوا : فرق بين السناد والإقواء .

راجع / لسان العرب / « سند » وكتب العروض .

٢٢ ـ المثقف : أى الذى يصقل سيفه . الكعوب : عقد القناة .

الثقاف : خشبة مختلفة الرؤس فيها خروق فيدهن المثقف القناة ويدنيها من النار ثم يدخلها فى خرق الثقاف فيغمزها حتى يستوى اعوجاجها . منآدها : معوجها .

٢٣ - شظف الخطوب : الشظف : الشدة . الخطوب : الأمور .

٢٤ - السداد : القصد . أو ما تسد به الخلة .

٢٧ - الأنواء : جمع نوء وهو المطر . خناصرة : بلدة من أعمال حلب تحاذى قنسرين نحو البادية ، وهى مدينة كان ينزلها عمر بن عبد العزيز . الأحص : كورة كبيرة مشهورة ذات قرى ومزارع بين القبلة وبين الشمال فى مدينة حلب . وقيل : الأحص : جبل .

٢٩ - خزائهما : أى قيادها .

٣٢ - الغور : العميق البعيد ، وقيل : هو ما انخفض من الأرض . نجادها : ما غلظ من الأرض وأشرف وارتفع واستوى .

٣٤ - الطريف والطارف والمطرف : المال الحديث . والتليد : القديم الموروث .

٣٧ - تضرمت : توقدت واشتعلت والتهبت . سامى : ارتفع وصعد . اكتادها : من الكيد . وفى رواية « اقتادها » .

٣٨ - العرمرم : الجيش الضخم . يئد الروابى : يغمز الأماكن المرتفعة من الأرض بالوطء الشديد . ذى وغى : أى يسمع لهم صوت شديد . الحرة : الأرض ذات الحجارة السود . احتمل الضحى أطوادها : أى رفع الضحى إذا كان فيه الآل حيالها فإذا راها الناظر يقدر أنها قد عظمت .

٣٩ - قدحت : أشعلت . براحتيك : بيديك . الزناد : عود للثقاب .

وقفـة خفيفة مع القصـيدة •

كعادة الجاهلين بدأ (عـدى) قصيدته بمقدمة طلليه - ويخيل إلى أنه كان ينظر إلى معلقه طرفة أو كانت فى ذهنه وقت إنشائه هـذه القصـيدة •

وعـدى فى الأبيات الخمسة الأولى يصف الديار التى زار ما بقى منهـا مرارا وقد شـملها البلى ولم يبق فيها سـوى الأحجار التى كانت تنصـب للقـدور ، وقد عريت من القـدور •

وطرفه وصف الديار وموكب الحبيبة فى خمسة أبيات أيضا •

ثم أخـذ يصف حبيبته ويشبهها بالظبية البكـر الفريدة - وهـذا يعطى فرصـة لتأمل حسنها وجمالها - كما فعل طرفه حين قال :

خـذول تراعـى ربـربا بخميلـة
تناول أطـراف البريـر وترتـدى

وفى وصف البعير والظبية يأتى بيتـه الفذ الذى حسـده عليـه فحـول الشـعراء وتداولته كتب البلاغـة والنقـد وهو قوله :

تزجى أغـن كـأن إبـرة روقـه
قلـم أصـاب من الدواة مـدادها

ويقال إن هـذا البيت وراء شـهرة عـدى •

ثم تحـدث عن نفسـه التى أصابت من المعيشـة لذتها ، ولقيت من شـدة الأمـور صعابها •

ثم مـدح الوليد بن عبد الملك واتخـذ من حـديث الأنواء بداية للحـديث عن الممدوح فأقام عـلاقة بين الغيث والوليـد ، واتخـذ من الفعـل « نزل » بداية وجانس بين الغيث والإغاثة وهو ما يعتقده بعد أن ألقت البرية كلهـا أمورها إليـه وسلمته مقـادها •

وعلى مذهب شعراء بنى أمية يذهب الشاعر إلى أن إرادة الله التى شاءت أن يتولى الوليد مقاليد الامور ليأخذ بيد البلاد إلى الصلاح والرشاد فصار يعمر أرض المسلمين ويرد عنها كيد المفسدين ، وقد أفاء الله عليه من وراء ذلك الغنائم الوفيرة والاسلاب العظيمة .

ولم يغب عن بال عدى قدرة الوليد الحربية فتحدث عنها وختم بها قصيدته .

مع البلاغة

فى القصيدة من الألوان البيانية .

١ - التشبيه .

فى قول الشاعر :

تصطاد بهجتها المعلل بالصبا
عرضا فتقصده ولن يصطادها
كالظبية البكر الفريدة ترتعى
من ارضها قفراتها وعهادها

وقوله :

خضبت بها عقد البراق جبينها
من عركها علجانها وعرادها
كالزين فى وجه العروس تبذلت
بعد الحياء فلاعب ارآدها

وقوله :

تزجى اغن كان إبرة روقه
قلم اصاب من الدواة مدادها

٢ - الاســتعارة .

فى قولــه :

. . . .

. . . واستلب الزمــان رمادهــا

وتنكــرت كــل التنكــر بعـــدنا

والأرض تعـــرف بعــدها وجمــادها

او مــا تــرى أن البـــرية كلهـــــا

القــت خــزائمها إليـــــه فقــادها

٣ - الكنـــاية .

فى قولــه :

أو ما ترى شـــيبى تفشـــغ لمتى :

. . . .

وقوله :

وإذا نشرت لـه الثنــاء وجـــدته

جمـــع المكــارم طرفها وتــلادها

وقوله :

تاتيـــه اســـلاب الأعـــزة عنـــوة

قسرا ويجمــع للحــروب عتادهــا

أما البديع فنجــد الطباق فى قوله :

أطفـــات نارا للحــروب وأوقــدت

نارا قدحت براحتيـــك زنادهـــا

وقوله :

وعمــرت أرض المسـلمين فأقبلـت

ونفيت عنهــا من يريــد فســادها

موسيقى القصيدة ٠

ينساب التنغيم فى هذه القصيدة انسيابا يجعلها صالحة للغناء - فهى من بحر الكامل الذى انسجم مع قافية عذبة سهلة المخرج ٠

وعروض القصيدة سهل ، وقد قلت فيه الزحافات والعلل المعقدة(١) ٠

وقد حرص الشاعر على التصريع(٢) فى مطلع القصيدة وداخلها ٠

ولا شك أن التصريع فى مقدمة القصيدة بمثابة « مقدمة موسيقية خفيفة قصيرة ، تلهب إحساسنا وتهيئنا لاستماع القصيدة ، وتدلنا على القافية التى اختارها الشاعر »(٣) ٠

أما داخل القصيدة فالتصريع « دليل على اقتدار الشاعر وسعة بحره وقوة طبعه »(٤) ٠

* * *

خصائص شعر « عدى » :

١ - صفاء الألفاظ ورقة المعانى ٠

٢ - يكثر عدى من ذكر المواضع التى عاش فيها مما يؤكد شدة ارتباطه بها وعمق انتمائه لها ٠

---

(١) ديوان عدى ط بيروت ص ١٣٣

(٢) التصريع : ما كانت عروض البيت فيه تابعة لضربه تنقص بنقصه وتزيد بزيادته ٠

(٣) الشعراء وإنشاد الشعر ص ١٣٤ د/ على الجندى ٠

٣ ـ كان عندى شاعرا حضـريا ، يتسلسل ظل النعيم فى أبياته ، وينساب رونق الحضارة فى شعره ، وتتناثر مفردات الحياة الاجتماعية فى صـوره وهو يستعيد التشبيهات التى أملتها عليه طبيعة الحيـاة ، ولونتها رفاهية الواقع الجـديد الذى عاشه الإنسـان العربى فى ظـل التقاليـد الحضرية ٠

ولابد أن يكـون هـذا الاتجـاه قد حملـه مهمـة الإحسـان فى مخاطبـة الخلفـاء(٥) ٠

* * *

(٤) نقـد الشـعر ص ٨٦ والمرجـع السـابق ص ٨٦

(٥) راجع مقدمة ديوان عبدى ـ ط العراق ٠

المـــراجع

١ ـ أدب السياسة فى العصر الأموى
د/ أحمد الحوفى · دار نهضة مصر ط ثالثة ·
٢ ـ الادب فى موكب الحضارة الإسلامية د/ مصطفى الشكعة ·
عمر رضا كحالة ـ المكتبة الهاشمية ـ دمشق ·
٣ ـ اعلام النساء فى عالمى الجاهلية والإسلام
٤ ـ الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ـ ط دار الكتب ·
٥ ـ انساب الأشراف للبلاذرى · ج ٥ ط مكتبة المثنى ـ بغداد ·
٦ ـ البيان والتبيين ـ للجاحظ ـ
تحقيق عبد السلام هارون ـ ط الخانجى الخامسة ١٩٨٥
٧ ـ التطور والتجديد فى الشعر العربى
د/ شوقى ضيف ط دار المعارف السادسة ·
٨ ـ التفسير والمفسرون ـ
الدكتور / محمد حسين الذهبى ط مكتبة وهبة ·
٩ ـ تاريخ الأدب العربى ـ
د/ عمر فروخ ـ بيروت ـ دار العلم للملايين ·
١٠ ـ تاريخ الأدب العربى ـ
العصر الإسلامى د/ شوقى ضيف ط دار المعارف ـ ط ثانية ·
١١ ـ تاريخ الأمم والملوك للطبرى ط / دار المعارف ·
١٢ ـ تاريخ الشعر العربى
د/ محمد عبد العزيز الكفراوى ط / نهضة مصر ·
١٣ ـ تاريخ النقائض فى الشعر العربى د/ أحمد الشايب ط ١٩٦٤
١٤ ـ جمهرة خطب العرب أحمد زكى صفوت ـ ط الحلبى ·

١٥ - الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبى) - ط دار الشعب .

١٦ - الحماسة لأبى تمام .

١٧ - حياة الشعر فى الكوفة

د/ يوسف خليف - دار الكاتب للطباعة والنشر ١٩٦٨

١٨ - الخليفة المفترى عليه عثمان بن عفان

محمد الصادق عرجون - الدار القومية للطباعة والنشر .

١٩ - ديوان الأخطل

تحقيق إيليا سليم الحاوى - دار الثقافة - بيروت .

٢٠ - ديوان ابن الرقيات - ط / فينا .

٢١ - ديوان جرير - ط / الصاوى .

٢٢ - ديوان جميل ... تحقيق د/ حسين نصار - دار مصر للطباعة .

٢٣ - ديوان ذى الرمة .

٢٤ - ديوان الطرماح - تحقيق كرنكو .

٢٥ - ديوان عدى بن الرقاع

ط / العراق ، ط / دار الكتب العلمية - بيروت .

٢٦ - ديوان الفرزدق - ط / الصاوى .

٢٧ - ديوان القطامى

تحقيق د/ ابراهيم السامرائى و د/ أحمد مطلوب - بيروت ١٩٦٠

٢٨ - ديوان كثير - ط / الجزائر .

٢٩ - ذو الرمة شاعر الحب والصحراء د/ يوسف خليف .

٣٠ - رغبة الآمل من كتاب الكامل للمرصفى

ط / نهضة مصر الأولى ١٩٢٧ وما بعدها .

٣١ - زهر الآداب للحصرى .

٣٢ - سنن ابن ماجة - ط الحلبى - تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى .

٣٣ - شعر الحرب فى أدب العرب - د/ زكى المحاسنى .

٣٤ _ الشعر والشعراء لابن قتيبة
تحقيق أحمد شاكر _ ط دار المعارف سنة ١٩٦٦
٣٥ _ شعراء أموبون _ القسم الثالث _ د/ نورى القيسى ط العراق ٠
٣٦ _ صحيح البخارى _ ط صبيح ٠
٣٧ _ صحيح مسلم _ ط الحلبى ٠
٣٨ _ طبقات الشعراء لابن سلام _ تحقيق شاكر ٠
٣٩ _ العشاق الثلاثة
د/ زكى مبارك سلسلة اقرأ _ دار المعارف بمصر ٠
٤٠ _ العمدة لابن رشيق القيراونى _ ط السعادة ٠
٤١ _ عون المعبود شرح سنن أبى داود
ط شمس الحق آبادى _ ط دار الكتب العلمية بيروت ٠
٤٢ _ الفتوة عند العرب _ عمر الدسوقى _ مكتبة نهضة مصر ٠
٤٣ _ فجر الإسلام
أحمد أمين _ ط مكتبة النهضة المصرية _ الحادية عشرة ١٩٧٥
٤٤ _ الفهرست لابن النديم _ ط الاستقامة ٠
٤٥ _ الكامل _ للمبرد _ ط / نهضة مصر ٠
٤٦ _ الكامل فى التاريخ لابن الأثير _ ط / دار صادر ٠
٤٧ _ المؤتلف والمختلف للآمدى
تحقيق عبد الستار فراج _ ط الحلبى سنة ١٩٦١
٤٨ _ مروج الذهب للمسعودى _ المطبعة البهية ٠
٤٩ _ مصادر الشعر الجاهلى
د/ ناصر الدين الأسد _ ط / دار المعارف ٦٢
٥٠ _ النقائض لأبى عبيدة
٥١ _ نقائض جرير والأخطل
٥٢ _ الوصف سامى الدهان _ ط دار المعارف ٠

محتويات الكتـاب

الموضــــوع	الصفحة

تعريف بالمؤلف

الاسم : زكريا عبد المجيد عبد الهادى النوتى •

من مواليد قرية كفر الثعبانية - سمنود - غربية فى ١٩٥٦/١١/١٥

أتم حفظ القرآن الكريم وهو فى التاسعة من عمره •• دخل مسابقة القبول الأزهرية سنة ١٩٦٨ والتحق على أثرها بالأزهر الشريف •

- حصل على الإعدادية الأزهرية ١٩٧١ وكان ترتيبه على مستوى الجمهورية (السابع والثلاثين) •
- ثم حصل على الثانوية الأزهرية ١٩٧٥ وكان ترتيبه (الثانى) على مستوى الجمهورية •
- التحق بكلية اللغة العربية بالقاهرة فى العام نفسه وكان ترتيبه (الأول) على دفعته فى السنوات الأربع ونال درجة الليسانس بتقدير (جيد جدا مع مرتبة الشرف الأولى ١٩٧٩) •
- عين معيدا فى قسم الأدب والنقد بالكلية ١٩٨١ ونال درجة التخصص الماجستير ١٩٨٦ فى موضوع « **خالد الجرنوسى** » حياته وشعره « بتقدير ممتاز » •
- حصل على درجة العالمية « الدكتوراه » ١٩٩٠ فى موضوع « **شعر قبيله بنى سليم من الجاهلية حتى نهاية العصر الأموى** » « بتقدير مرتبة الشرف الأولى » •

نتاجه العلمى :

١ - تفسير « **بحر العلوم** » لأبى الليث السمرقندى تحقيق (بالاشتراك) •

٢ - تفسير (**البحر المحيط**) لأبى حيان .. تحقيق (بالإشتراك) .

٣ - كتاب الذريعة فى الأعداد الواردة فى الشريعة - تحقيق (بالاشتراك) .

٤ - كتاب الدر المصون فى علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبى .. تحقيق (بالاشتراك) .

٥ - الأدب الجاهلى تاريخه وقضاياه - تأليف

٦ - الأدب الأموى - تاريخه وقضاياه - **تأليف**

٧ - درر من الأدب الجاهلى - تأليف

* * *